Diwan al Arab
منبر حر
للثقافة والفكر والأدب

ديوان العرب تقدم لكم:

قصة نبي

(تخييل روائي)

للأديب المغربي

مصطفى أدَمين

الصمتُ ثقيلٌ؛ والمرأة التي على وشك أن تضعَ حميلَها، تنظرُ إلى ما بين فخذيها في هدوء. بعضُ الماء بلَّلَ الحصير الذي نسجته بيديها قبل أيام.
من نافذة، بدأتْ أَشعّةٌ ليليةٌ تتسلّلُ في احتشام، وكأنّها تتلصّصُ على هذه المرأة بالذات لأنها لم تصدر ولو أنّة واحدة. على العكس من ذلك، رسمتْ على شفتين فاكهيتين، ابتسامة سعادة وفخر. لقد سبق أن أجهضت عدّة مرّات؛ أمّا في هذه المرّة، فحملُها قد اكتمل. وهي لا تشعر بأدنى ألم، عدا دغدغة رقيقة في أحشائها. ولهذا السبب الغريب تبتسم كذلك.
المرأة التي تجلس بجانبها هي الأخرى صامتة. وكأنها تنظر إلى امرأة تريد أن تنام. وبعض النساء في الخارج جالسات وواقفات ينتظرن هنّ الأخريات في صمت. قد يكون التحدث في مثل هذه المناسبات سبباً من أسباب الإجهاض، أو المرض، أو الموت. بعضهنّ أمسكَتْ تغزل الصوف، وأخريات ينظرن إلى الشفق الأحمر الممزوج بذهب ثمار الأرْكانْ. ولعلّ أخريات يتساءلن كيف لِ"إيطّو" وعمُرها شارف الخمسين، أن تنجب؟ و كيف سيكون وليدُها؟ وهل...سيعيش؟
طفلةٌ جرّتْ أمَّها من عباءتها... لا! لن تسعفَ جوعَها لأنّ الوضعَ لا يحتملُ الكلام أو الانصراف. لا بدَّ من الصبر.
امرأةٌ تشتغل مع "إيطّو" أحدثتْ ضجّة بعينيها، فعاتبتها النساء بأعينهنّ، فانكمشت على نفسها توبّخُها على استسراعِها للأمور؛ ثم انقلبتْ تفتشُ الحائطَ الذي تتكئُ عليه، وهو ككل حيطان البلدة؛ مصنوعٌ من ألواح صخور الشيسْتْ والصلصال، لكنّه لم يعد يبرق، لأن الشمسَ غربت بالفعل؛ ولم تعد النساء يريْن بعضهن إلاّ بفضل الضوء المتبقّي في أعينهن.
فأتاهنّ ضوءٌ من الداخل عندما أوقدتْ "تيسْليتْ" قنديل الزيت. وانطلقَ جُدْجُدٌ يحكي للقبيلة عَمّا رآهُ في يومه، لكن بلُغته.
فأتى الوليدُ، ونظرتْ إليه القابلةُ بعينين منبهرتين، ثم منزعجتين؛ وما حاولت قطع الحبل السرّي بالسكين، إذْ رأتهُ مقروضاً بضع سنتيمترات أعلى السرّة، فما إنْ لمستْ طرفَه الآخر، حتى أتتْها المشيمةُ كخرقة يد مبللة. فقالت:
- تهيئي لأن تريْ كائناً ليس بشرياً. فردّت "إيطّو".
- هل هو حي؟ أنا لا أسمع صُراخَه.
- هو حيّ و لكن...
في الخارج بدأت همهمة:لقد ولدت...لقد ولدت...ماذا ولدت؟...

عندما رأت "إيطّو" وليدَها، كتمتْ خوفاً وألَمًا، وأشارت إلى قابلتها بأن تغلقَ الأبوابَ حتى لا ترى أيُّ امرأة وليدَها العجيب، فامتثلتْ هذه للإشارة بخَفة امرأة تَعرف جيّداً أهلَ بلدتها، وما يمكن أن يفعلوا ب"إيطّو" ووليدها اللابشري؛ والحرجَ الذي سيطالُهم إذا علمت البلدان المجاورة بحدث إنَجاب امرأة منَهم لمسخ: قد يعزفون عن مصاهرتهم تخوُّفاً من أن تنزل "اللعنة" عليهم أيضاً.

قفزت إلى الباب شبه المغلق وغلقته، وإلى النافذة، وأوصدتها من دون أن تلقي أية نظرة إلى الخارج.

وعندما سألتْها امرأة "هل قُضيَ الأمر؟" لم تُجبْ؛ وعادتْ إلى "أمّ المسيخ" لتراها تنظرُ إلى شيءٍ صغير صامت، بالكاد تتحرّكُ أطرافُه النحيلة جدّاً، ولهُ رأسٌ تشبهُ رأسَ جرادة، وأسنان أمامية علوية وسفلية، وأذنان مثلثتان زغبتان، وبداخلهما طيّات، وأوتار دقيقة ومتقاطعة. وفي مستوى قفاه رأتْ ورَمَيْنِ عَظْميَيْن. وراحت تتأمّلُ مخلوقهاَ ناسيةً حسرتَها على الولد البشري الذي لم تَسعفْه به بطنُها. لقد أجهضتْ مراراً، ويا ليتها أجهضتْ هذه المرّة كذلك، وطرحتْ إلى الأرض لُحيمةً بنفسجية غير مُتفرِّقة بدل أن تضعَ كائناً لا هو من البشر، ولا هو من الخنافس، ولا هو من القطط.

في لحظة تأمُّلٍ عميقٍ في المخلوق الذي نما في داخلها تسعة أشهر كاملة، واقتات مما تقتاتُ عليه من خبز شعير، وتمر، وتين، ولحم الماعز وجبنها؛ شرعتْ تبتسمُ؛ ثم تضحك (في صمت)، ثم همستْ إلى "تيسْليتْ":

يا ويلي! ماذا عساه يكون هذا الشيء؟

فنهرتها هذه الأخيرةُ هامسة هي الأخرى:

اصمتي! الوضعُ جدّي للغاية، ولا بدَّ أن نخفيه. وهي تنظر إلى " المسيخ"، قالت لشريكتها:

انظري! إنّه يحرّكُ أذنيه باتجاهنا عندما نتهامس.

وكان يحرك هذه الأذن أو تلك باتجاه أي صوت يصدرُ عن محيطه. وحتى لمّا كانتْ طفلة أو طفل (في الخارج) يبكي على أمّه بسبب إحساسه بالجوع، أَو عندما كانت تعطس امرأة أو تأحُّ بسبب الرطوبة التي حلّت مع الليل من البحر؛ أو بسبب قرقرة يحدثها جدجدُ متخفي، كان ذلك "الشيءُ-الحيُّ... البشريُّ-الحيواني"، يحرِّكُ أذناً أو أخرى أو كلتيهما باتجاه مصدر الصوت.

ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ سألتْ "إيطّو".

لم تردّ "تيسْليتْ" بسرعة، وإنّما استغرقتْ تتأمّلُ ما في يد شريكتها وتقول في نفسها:"المسكينة؛ قسا عليها الربُّ بالعقم، ثم بالإجهاض، ثم بالمسخ...فماذا تكون قد فعلت له حتى يقسو عليها إلى هذا الحدّ؟"

فقالت لها بتألّمٍ زادَ من تجاعيد وجهها السبعيني:
أخافُ أن تكوني قد وضعتِ غولاً صغيراً، وفي هذه الحال، أنتِ تعلمينَ ماذا ينبغي أن نفعل به.
فردّت "إيطّو":
المسكين لا ذنب له، وهو واحدٌ من مخلوقات الربّ على كلِّ حال.
كانت العادة أن يوضع أي مولود مسيخ تحتَ قصعة طينية ثقيلة لوَأْدِه؛ إذ (لا خير في المُسوخ، لأنّهم لا يجلُبون إلاّ الشر، وأكثر من ذلك، فهُم لا يعيشون أكثر من بضع سنوات...)
وماذا سأقول ل"أزكَايْ" أبيه؛ وللنساء المنتظرات خلف الباب...؟
سنقول لهم بأنَّك وضعتِ مولوداً ميتاَ، ثم سندفنه في أيّ مكان...
تألّمت الأمُّ، ومع ذلك خضعَتْ لخطّة قابلتها الخبيرة بعادات وتقاليد أهل البلدة، لمّا أشارَتْ لها إلى قدرٍ فخّاري صغير بعروتين، وتحفير بشتى الرموز المخزِّنة لثقافة وحضارة المنطقة. وكانت هي، وليس زوجُها "أزكايْ" مَنْ اشتراه من السوق الأسبوعي.

"أزكايْ" في هذه الساعة في بلد بعيد. يحفر لأجل الماء أو الأشجار أو البناء؛ و حتى للسجون، والقبور.
ولكن قلب الأم رقيق.
أخرجتْ "إيطّو" من جنبِها نسجاً مستطيلاً صغيراً كانتْ نسجتهُ من الأسْل والقصب لتضع عليه أواني الغذاء الساخنة.
لُفّيه في هذه! قالت.
وقبل أن تفعل، أطلّتْ على النساء من النافذة التي كانتْ أغلقتْ وقالتْ لهنَّ بصوتٍ لا يقبلُ المجادلة:
في هذه المرّة، وضعَتْه ميِّتا، فانصرفن إلى أشغالكن الآن!
لم يرددن عليها كلمة، فهي من تولِّدهن، ولها سلطة عليهن، وليس لهنّ أيّ أمل في حمْل "إيطّو"... فكان الليل.
تناولت "تيسْليتْ" ذلك "المسخ"، ولفّته في ذلك النسيج، ووضعته أرضاً، ثم قلبت عليه تلك القدر؛ وقالت:
والآن، انتظري حتى الصباح...سيكون قد مات...وسأكون هنا لأجل أن أدفنه في مكان مّا، من دون أن يعلمَ أيّ أحد.
وراحتْ تحضِّرُ لها شُربةً أساسُها قديدُ ماعز، مع بعض التوابل المدفئة. وانتظرتا معاً في صمت حتى نضج الطعام، و"المسيخ" في قبره، لا يُسمعُ له صوت.
في الماضي كنتُ جميلة. قالت "إيطّو".

ولا زلتِ حتى الآن جميلة. قالت "تيسْليتْ".
لستُ أدري لماذا أحمل فأجهض، أو أضع مسوخا؟
حكمة الربّ هذه.
وماذا عن "أزَكايْ"؟
لن يعرف أيّ شيء.
هل تظنّين أنّه سيطلقني أو يتزوّج أخرى؟
ما أظن ذلك؛ فهو رجل حكيم، وأراه ما زال يحبّك.
واستمرّ الحديث بينهما حتى منتصف الليل؛ حتى نضج الطعامُ فأكلتا منه، وقالتْ "تيسْليتْ":
آنْ أنْ أنصرف.
استبقتها "إيطّو" لحظة حتى أخرجتْ من صرّة في وسطها، قطعةً نقدية مرسومٌ عليها حصانٌ جامح.
هذه لك لأجل ما عانيت معي.
هذا كثير عليَّ يا عزيزتَي.
ولكنّها أخذتها، وصرّرتها، وقالت:
موعدُنا صباحاً لأجل دفن هذا الوضع. (في إشارة إلى "المسيخ").
انصرفتْ "تيسْليتْ" في جسد الظلام، في كنف قرقرة جدجد، اثنين، ثلاثة، عشرة، مائة، ألف، ملايين الجداجد؛ حتى ضَجَّ رأسُها، وخَالتْ إنّما الجداجدُ يقربون بشكل من الأشكال إلى ذلك "الشيء" الذي وَأَدَتْه.
وهي تطرق باب بيتها في الجانب الأيسر من التلّ المطلّ على البلدة، رأتْ عشرات القطط هناك، ترنو لها في صمت. فاقشعرَّ جلدها من خوفٍ غريب، وما ماءت القطط، وإنّما تابعت حركاتها بعيون مضيئة. ولأولّ مرّة في حياتها خافت من "الضوء". كيف لا تخاف والمفروض أنّ الكائنات الظلامية مثل القطط، وسائر المخلوقات التي ترى في الغسق والظلام طرائدَها بلون الدّم؛ لا يمكن أن يأتي منها أيُّ نور. وأيُّ نور ذاك الذي قد يأتي من الظلام؟
خافت؛ فنزَّ جبينُها عرقاً بارداً عندما رأتْ تلك المخلوقات المريبة تنصرفُ بخطى صامتة، سالكة الطريق نفسَها التي أتتْ منها هي، وازدادَ خوفُها أكثر، لمّا رأتْ زعيمَ القطط ينظر إليها بعينين آدميتين، وكأنّه يتوعّدُها بسوء العاقبة لأجل ما فعلتْ...ولكنّها لا تعرفُ ماذا فعلتْ ـ بالضبط ـ لتستحقَّ التهديدَ من تلك الكائنات الظلامية (؟). حقيقةً؛ هي لا تعرف، ومع ذلك انتابها شكٌّ في أن تكون تلك الفعلة التي فعلتها في بيت "إيطّو"؛ تلك

الجريمة "المحمودة " من طرف أهل بلدتها؛ ذلك القتل غير الرحيم بالنسبة ل"المسيخ"، والرحيم بالنسبة لوالدته ولبنات البلدة"؛ هي ما استقطب القطط، العقاب، الحدّ، الموت. فارتجفتْ يدُها وهي تحاول إدخال المفتاح في قفل باب بيتها.

هل تستطيع أن تنام بضع ساعات حتّى يقبل الصبح؟ أو نصف ساعة قبل أن يُفصح؟ أو أن تهدأ قليلا؟
بَيْدَ أنَّها استجمعتْ نفسها وشجاعتَها، وقامتْ لتنبش قبر "المسيخ".
ببطء شديد؛ وفي صمتٍ، رفعتْ قليلاً قليلا الفخّارَ المنكفئَ على مولودِها الذي لم تفكّر حتّى في أن تعطيه اسْماً.
هلْ تقدر أن تعطيَ اسماً لوحشٍ تخرّج من أحشائها؟
لمْ يكن قد مات اختناقاً. وجدتْهُ يقرضُ بثناياه الحصيرَ النباتي الذي كان يلفُّه، ويصدِرُ خشخشةً حشريةً بأطرافه الرقيقة.
كان الجوعُ أكَلَ صبرَه في انتظار أن ترضعَه. وفي دهشتها، رأتهُ يستلُ خيوط النسج واحداً واحدا، ويقرضها على غرار ما تفعل دودةُ القز بأوراق التوت.
في لحظة أمومة، رقّتْ لحاله، وتناولته بين أصابعها إلى حلمة ثديها الأيمن، وبدل أن يمُصّه كما يفعلُ المواليد الرُّضَّع، قضمهُ قضمةً جعلتْ والدتَه ترميه بعيدا...وما بكى، بل انصرف يجرُّ أطرافَه نحو الحصير.
لا يمكنُ أن يكون هذا الشيءُ آدميا. قالت.
وفكّرتْ فيما قالته لها "تيسْليتْ" (هذا المسخُ، يجبُ أن يموت وَأْداً). وقبل أن تسحب عليه القصعة الثقيلة، رأته يمدِّدُ أطرافه الأربعة كما حشرة، وينام.
فقامتْ هي الأخرى إلى فراشها وقد أنهكتها المفاجآت. لا بدَّ لها أن تنام قليلا لترتاح... لتحلُمَ بزوجِها "أزكايْ" يوبِّخُها على ما لم تفعله لأجل أن تنجبَ له ولداً أو بنتاً كما تفعلُ سائر النساء.
ولكن "أزكايْ" لن يرىَ المسخَ الذي أتى من صلبه. سيكون قد دُفن؛ وسوف يأسف - إذا ما علم - يوماً أو ثلاثة، ثم سينسى.

نظرتْ "تيسْليتْ" نظرة أخيرة على قطيع القطط المنصرف قبل أن تلجَ بيتَها، ثم أوقدَتْ قنديلا، فرأتْ الآلافَ من الجداجد في كل مكان من بيتها وهي صامتة، وفي طرفة عين، شرعت تلك الحيوانات الصغيرة تقرقر، و"تيسْليتْ" تصرخ في موقفها من الرهبة، دقيقة، ثلاث... إلى أن شعرت الجداجدُ برعبها، فبدأتْ تنصرفُ من الباب والنوافذ والتشققات التي في بيتها المَبني بالخشب و الصلصال.

الآن، تأكّدتْ "تيسْليتْ" من وجود علاقة خفية بين الجداجد والقطط وذلك المولود الذي وأدتهُ في بيت "إيطّو".
"لن يأتيني النومُ" قالتْ لنفسها "سأرجعُ فوراً إلى "إيطّو" وأخبرها بما حدث.
لا! هذا الوضعُ لا يمكن أن يمرَّ من دون أن يعلمَ به الفقيهان سيدي "أحمد بن محمد" وسيدي "ربّي بن عمران". وتمدّدتْ على أوّل حصير، ومن دون أن تشعر، نامتْ، وحلمتْ بالمرحوم زوجها "مْحانْد" المقتول في قوّة الأربعين ضمن جنود السلطان الحاكم آنذاك، ضدَّ المستعمر... حتّى الصباح. رأته صامتا، ومع ذلك كانَ بعضُ الكلام المتبقّي في ملامحه، يُوبّخها...
قبل أن يؤذن ديكُ الفجر، وجدتْ نفسها تطرقُ باب "إيطّو" طرْقاً خفيفا، لعلَّها بذلك لا توقظُ الجيران (على الرغم من بُعدِ سُكناهم)؛ وكانتْ "إيطّو" وراء الباب تتجسّسُ على زائرة الفجر في توجّس.
همستْ:
- "إيطّو" افتحي الباب! أنا "تيسْليتْ"...هيّا افتحي! لا تخافي!
من أين لها ألا تخافَ والوضعُ كلُّهُ مخيف؟
فُتِحَ البابُ، وانسلّتْ زائرةُ الغبش الصباحي إلى بهو البيت لترى صديقتها شاحبةً مثل قنديل أوشكَ على الانطفاء.
أختي العزيزة، حدث لي بالأمس أمْرٌ تبيضُّ له الرؤوس.
وكان أن ظهر بعض الشيب على أصداغهما، كما ظهرَتْ تكمُّشاتٌ جديدة على جلد وجهيهما، وكأنهما قضّتا بين الأمس واليوم عدّة سنين؛ في حين، بدا "المسيخُ" وقد ازدادَ وزنهُ مقدار ما التهمَ من حصير، ورأتاهُ في كامل صحته، وهادئاً كما جدجد وجدَ حليلته، أو قطٍّ تخلّصَ من كوم الزغب الذي كشطه بلسانه الأحرش.
وهما شائختَان بين ليل و نهار؛ قالت هذه لتلك:
والآن ماذا علينا أن نفعل؟ فردّتْ في خوف:
رأيي أن نستدعيَ سيدي "أحمد بن محمد"، وسيدي "ربّي بن عمران" ليفتيا لنا في شأن الوضع الخطير الذي نحن فيه.
فهمستْ "إيطّو":
افعلي ذلك الآن وبسرعة قبل أن يَستفيق الخلق، فيسوء الوضع.
في طريقها، الْتَقَتْ "تسْليتْ" إحدى نساء الأمس، وما ردّتْ على تحيّتها وسؤالها؛ والتقتْ قطّاً أصفر فراوغته، ونملاً أسودَ، فتخطّتهُ، ومخلوقاً ضئيلا جدّا، خالتْهُ مخلوقاً ضئيلاً جدّاً، فقفزتْ فوقَه لكيْ لا تقتلَه، وهكذا حتى بَلَغتْ بيتَ سيدي"ربّي بن عمران"

المندمج في صخور التلّة التي قبل تلّة بيتها، وكان صرحاً قديماً عمُرُه ألف سنة؛ ببابٍ قصير، ونوافذ صغيرة عالية، وطوابق غير مميّزة.
فظهر لها من نافذة صغيرة شيخاً شارَفَ الثمانين، بلحية وشارب أبيضين كثّيْن، وفمٍ صغير أحمرَ، وأنفٍ معقوفٍ أبيضَ، وعينين شابَّتين، وتجاعيد قليلة، ورأسٍ تكسوها قلنسوة مثقلة برسومٍ بيضاء وزرقاء.
أطلَّ عليها من تلك النُّوَيْفذة، وقال:
السيِّدة "تيسْليتْ"؟ ماذا تريدين؟
قصّتْ عليه ما رأتْ، فصار - هو من - يجرجرها إلى بيت سيدي"أحمد بن محمد"، المُطل على البلدَة من على ربوة، والشامخِ ببوّابته الأرْكانية المثقلة بالمسامير النحاسية.
أطلَّ من إحدى النوافذ الخمس التي تعلو البوابة، بلباسه المعهود؛ "تحتية" بيضاء، جلبابٌ أخضر، لحية ثلجية، وشارب محلوق.
فتحادثوا في الأمر ساعةً؛ ثم هرولوا إلى بيت "إيطّو".
ها هو! قالت.

فما إن رأيا خلقتَه، حتى شرع كل واحد منهما يتعوذ - باسم الربّ - من الشيطان الذي وضع في أحشاء امرأة شريفة مثل "إيطّو"، مثلَ هذا المخلوق.
فرأيا أذنيْ "المسيخ" تتحركان تُجاه هذا أو ذاك، أو هذه أو تلك...كان يقظاً يعرفُ - بطريقة مّا- أن مصيرَه رَهينٌ بتفكر رجُلين وامرأتين.
من الممكن أن ينتحرَ بطريقة مّا، بسبب قسوة العالم الذي أتى إليه من دون إذنه؛ أن يجعلَ من نفسه مولوداً معتوهاً فتحنُّ عليه أقسى القلوب؛ ومن الممكن أيضاً أن يُصيّرَ نفسَهُ فُرجةً تجَلبُ لوالديه ثروةَ لا بأسَ بها؛ ولكنّه آثر أن يظهرَ بمظهر المولود المختلف عن كل المواليد، وليس له أملُ في الوجود سوى رعايةُ أمّه و أبيه.
ولكن الفقيهان قرّرا أمْراً مختلفاً تماما:
لابُدَّ لهذا المسخ أن يموت، وإلاّ جلب الموتَ للبلدة بكاملها.
ولكنّهُ ما زال حيّاً. فهل سيقتلونُه كما لو كان مجرّد ضبّ؟ ومن منهمْ سيتطوّعُ لهذه المهمّة الشنيعة؟
امرأتان ورجلان في مواجهة كائن مختلف ضعيف، والقرار قد تقرّر: يجبُ قتله!
بالأمس قلبنا عليه قصعة فخار ثقيلة وما مات. قالت القابلة.
إنه لا يموت. قالتْ الأم.
أنا لا أقدر على قتله؛ فهو مخلوق الربّ على كل حال. قال سيدي "ربّي بن عمران".
وأنا الآخر لا أقدرُ على قتله وفيه روح بني آدم. قال سيدي "أحمد بن محمد".
في خضمّ حيرتهم الجماعية، رأواْ أمراً تقشعرُّ له الجلود...

من بئر سحيق في بهو مسجدٍ، طلعَ "أزكايْ" وفي يده شمعة منطفئة. وقال لمحافظ المسجد:
أشعرُ ببعض الدُّوار، وبقلبي ينبض بسرعة . فاستصبره المحافظُ قائلا:
أرى أنّ تلابيب سروالَكَ مبلّلةٌ بالماء؛ لقد بلغتَ أمْرَك، فاسترح قليلا!
فذهبَ خارج المسجد، وجلسَ على سورٍ قصير، ليتأمّلَ شمسَ مُراكش الخريفية الناعمة، فجاءهُ خاطرٌ عنى له أنّ زوجته "إيطّو" في خطر. فاستجمعَ نفسه إلى المحافظ:
سأرحلُ اليوم؛ أمرٌ مّا يحدث في بلدتي.
أنتَ رجلٌ طيّب، ولا بدَّ أن الربّ قد ألهمكَ قدرة استشعار المخاطر البعيدة... هاك أجرتك مائة وخمسين قطعة مالية، وعليها مكافأة قطعة فضية!
قبّل "أزكايْ" يدَ المحافظ، وسارعَ إلى الغرفة المخصصة للعمال في جانب من المسجد الكبير حيث أغراضُه، وراح يجمّعُها ويفكر في الخاطر الذي أتاه وهو في قعر البئر، وفي وسيلة النقل التي عليه ركوبُها إلى بلدته المتاخمة لجبال الأطلس الكبير من ناحيته الجنوبية الغربية.
سيراً، ستستغرقه الرحلة عشرة أيّام إذا ما أسرع في المشي عشرين كيلومترا في اليوم. هذا إذا لم تصادفه الكلابُ الوحشية أو الضّباع أو السّباع. أمّا على ظهر الحمير فسيقضي بضعة أيام في رحلته، من دون خوف من الوحيش، لأنه سيكون في ما يشبه القافلة. لا! لا بدَّ له أن يختصر المسافة والوقت لأن زوجته في خطر. فاستقرَّ اختيارُه على قافلة البغال السريعة، مضحيّاً بتلك القطعة الفضية...سيكون في بيته خلال يومين...يومين فقط.

رأواْ "المسيخ" يزحفُ إلى قصعة الفخّار الثقيلة، ورأوهُ يهبش حول قاعدتها لكي يدفن نفسه تحتها.
فتقدّموا ليساعدوه على وأدِ نفسه.
هذا المخلوق يعرف مصيره. قال سيدي "ربّي بن عمران".
يجب علينا أن نساعده. قال سيدي "أحمد بن محمد".
هيّا لنثقلَ بالقدْرِ بأيّ شيء حتى يموت . قالت"تيسْليتْ".
ولم تقلْ "إيطّوَ" أيَّ شيء.
شيءٌ مّا في أحشائها أو قلبها أو عقلها قال لها بأن ما هي مقبلةٌ عليه أمر شنيع. بكتْ في صمت، وفي النهاية، استسلمتْ لسلطة العارفين.
سنرجعُ في الليل لدفنه. قال أحدهم.

كما تريدون... ولكن؛ أ لا يحقّ أن نسمّيه؟ لا يعقل أن ندفن ولدَ رجل تقيٍّ بدون شاهدة قبر عليها اسمه، ولو كان وحشا...
لن ندفنه في مقبرة. قال سيدي"أحمد بن محمد".
سندفنه في الخلاء من شاهدة. قال سيدي "ربّي بن عمران".
ومع ذلك لا بدَّ أنْ أعطيه اسماً، فهو ولدي على كلّ حال.
فليكنْ، سمِّه ما تشائين!
سأسمّيه "إبراهيم" تيمُّناً باسم والدي رحمه الربُّ.
طيب! ..." إبراهيم بن أزكاي". قال الفقيه، مزكّيا.
بل " إبراهيم بن إيطّو". قالت الوالدة لعلمها أن "أزكايْ" لن يرْضَ أبداً بأن يُنسبَ إليه ذلك "المسيخ" لو رآه. ولأنها هي من ولَدَهُ، ولا دخل لزوجها فيه، وذلك راجعٌ - في اعتقادِها - إلى "لعنة" خصّها الربُّ بها من دون النساء، أو إلى "سرٍّ ربانيٍّ " عِلمُه عنده وحده.
فجاءتْ امرأةٌ بأكْلة من عجائنَ مفتولةٍ، مسلوقةٍ في الماء، ومغمورةٍ بلبن الماعز والسمن؛ دعْماً لبدن النفساء، وجبراً بخاطرها.
لمّا رأتِ المرأةُ الفقيهين، وضعت الطبق على الأرض بخفة، وجثتْ تقبّل أرجليهما، ثم بدأتْ تستجَدي دعوات كافّة الربّانيين لصديقتها "إيطّو"، لزوجها "أزكاي"، للقابلة "تيسْليتْ"، للفقيهيْن، لشيخ البلدة سيدي "عبد الله بن عبد الله"، لنفسها "طامو"، لزوجها "مْحاند"، ولسائر أبناء وبنات البلدة.
السيّدة "طامو" نبّهتنا لأمر كنّا سنغفلُ عنه. قال سيدي "ربّي بن عمران".
في تساؤل الآخرين، تابعَ يشرح:
أ لا ترواْ أنّ علينا إخبارَ شيخِ البلدة سيدي "عبد الله بن عبد الله " بما حدث؟
فردّ سيدي "أحمد بن محمد":
للشيخ علاقة بأهل المخزن، وما نحن فيه مسألةٌ خلقية دينية، ونحن، وليس أيّ أحدٌ آخر من يتوجّبُ عليه الحسمُ في هذه المسألة، ولقد سبق أن قررنا...أعني أن مسألة القتل، لا ينبغي لأهل "المَخْزَنْ" أن يعلموا بها.
معك حق! قال سيدي "ربّي بن عمران".
فحرّكتِ المرأتان رأسيهما تعبيراً على الموافقة.

هل أنتم متأكّدون من أمر خلقنا، ذاك الذي سمّيتموه "مسيخا"؟
أجل! نحنُ متأكّدون.
فما هي حجّتكُم؟

حجّتُنا هيَ كونُه مختلفاً عن جميع الخلق، وكوننا خفنا منه، ولأننا لا نعرفُ أيّة أقوال، وأحكام، وأفعال خطيرة سيأتينا بها عندما يشتدُّ عودُه؟
مثل هذه الحجة لها ما يبررها، فالوليد الجديد، أيّ وليد في البلدة، يمكن لأيِّ شخص أن يتنبأ له بحرفة رعي الماعز والغنم، أو الحدادة، النجارة، التجارة، الحجامة،...ولو كان "إبراهيم بن إيطّو" مولوداً عاديا، لتنبئوا له بحرفة والده "أزكاي"...كان سيكون حفّاراً مثل أبيه.
في النهاية، جاءَ الليل الذي طالما ارتقبوه، فوجدهم مرهقين وجياعاً حول قصعةَ الفخّار... قبر "المسيخ".
وقلوبهم ترتجفُ من الارتقاب، جثا جميعهم على رُكَبِه، وأزاحوا القصعة (كلٌّ من زاويته)، فرأوه لا حراكَ فيه. فمدَّ سيدي "أحمد من محمد" يدَه والتقطه. بدا له ميّتاً. تنهّدوا؛ وشعروا بالرغبة في تناول أيّ طعام، ولو كان حساء دقيق، بشرط أن يكون دافئاً؛ لأجل أن يسدّوا جوعهم، ويخففوا عليهم من برودة الخوف.

عندما بلغت قافلة "أزكاي" الجبال الغربية للأطلس الكبير، خرج عليها من بين ثلاث كُدى، في غبَشِ الغروب، ومن بين شُجيرات الأرْكانْ؛ سبُعٌ أغبرَ، ضامرُ البطن. فما إن رأوه، حتى أسقطوا أنفسهم من على الدوابّ وأخرجوا أسلحتهم؛ كلٌّ أخرجَ سلاحه؛ كُمِّيَة أو حربة أو سيف أو مُكَحْلَة. وشكلوا جبهة لمواجهة ذلك الوحش، ورَمَوْهُ بالنار والحديد رَمياً ما أصابه، ولكنّه جعلهُ يتقهقر إلى حضن غابته الآمنة. واستأنفَت القافلة رحلتها.

حلَّ الليلُ ومعه هذا السؤال:"أين سندفنه؟ هل في أعلى تلّة عالية؟ أم في أخفض منخفض؟
وبعد جدلٍ خفيضٍ، رأواْ أنّ أفضلَ الأماكن لدفن "المسيخ" هو أعلى التلّة؛ معلّلين لأنفسهم بأنها موقعٌ منظور من بعيد، ويسهل مراقبتُه؛ حتى إذا ما صعد إليها طفلٌ لاختبار قدراته، أو راعٍ لكسب قوتِ بهائمه، أو امرأة لجلب الحطب؛ سيكون بإمكانهم نهرُهُم عن مرادهم وإرغامُه على الهبوط و إقناعُهم بأية خرافة.
قالَ سيدي"ربّي بن عمران":
لماذا لا نشيعُ أن قمّة تلّة الولي الصالح سيدي "عَامْرْ بن عْمَرْ" مسكونة بالجن ليلا ونهاراً؟ بهذه الطريقة، لن يصلَ إلى قبر المسخ أحد.
فكان الإجماع. وخرج الرجلان ملتحفين بالليل، وركبا معاً ظهرَ بغلِ سيدي "أحمد بن محمد"، آمليْن أن لا يصادِفا أحدا؛ حتى إذا ما شارَفا قمّة التلّة، رَأَيَا جمهرةً من العيون

المضيئة لقطط كثيرة، وسِرْباً من الجداجد الطائرة، وبعض الخيالاتِ لكائنات هُلامية مخيفة.
فتملّكهما رعبٌ شديد.
ماذا سنفعل الآن؟ قال أحدُهما.
هذا أمرٌ غريب، من رأيي أن نتراجع، وأن نعيدَ المسيخ إلى والدَته لتفعل به ما تشاء.
والدتُه التي راحتْ تقول لنفسها:"ما كان عليَّ أن أتخلّصَ منه، ولكن؛ كان عليَّ أن أتخلّص منه".
والساعةُ تشيرُ إلى الرعب، طُرِق الباب.
السيِّدة "إيطّو"؟ خُذي مَسيخَكَ هذا وادْفنيه حيثما تشائين! قالا لها. وأضافا مُحذرَين: وليبقَ هذا السر بيننا نحن الأربعة، هل تَفهمين؟
أفهم. قالت.
وانصرف الفقيهان، فرأتْ وليدَها ترجعُ إليه الحياة.
بدافع الشفقة أكثر من دافع الأمومة؛ استخرجتْ "إيطّو" ثديها، ولكن "المسيخ" لم يرضعه، بالكاد قبّله، ونظر إلى والدته، وقال لها:
لماذا تقسيْن عليّ يا أمّي ؟
في هول المفاجأة، أفلتتْ:
هل تتكلّم أم أنني أتوهّم؟
فأجابها:
أنا أتكلّم، وأنت لست واهمة.
فأجهشتْ للبكاءِ من الخوف، من اقترابها من الجنون، من هول النبوّة؛ فتكوّمَ هو على نفسه رأفة بوالدَته، حتى هدأتْ قليلا؛ فسألتْه:
من أنت وماذا تكون بحقّ الرب؟ فأجاب:
أنا" أسْكَرّايْ" النبيّ... ابنُك.
فأُغْميَ عليها.
ساعة.... ساعتان... وحينما استفاقت، وجدَتْ بجانبها "تيسْليتْ" تشمِّمُها نباتِ إكليل الجبل.
إنّهُ يتكلّم. قالت "إيطّو".
ـ ماذا تقولين؟
ـ قلتُ إنّ هذا الشيء يتكلم.
هذا غير ممكن. أنت متعبة فقط. قالتْ "تيسْليتْ".
إنّه ينامُ الآن، ولكننَي سأجعلُه يَفيقُ، وسترين أنه يتكلّم مثل الكبار.

فرجّتهُ في نومه، وما استفاق، فقالتْ لصديقتها:
أ تعلمين؟ لقد أخبرني باسمه...قال إنّ اسمَه "أسْكَرّايْ"...أي "الجدجد" وقال إنه نبيّ... هوّني عليكِ يا صاحبتي العزيزة! - قالتْ "تيسْليتْ"- إنّه يشبهُ جدجداً بأذُنَيْ قطّ، ولكن من المستحيل أن يتكلّم. إنكِ مرهقة فقط؛ لا عليك؛ سأصنعُ لك رُقيّةً لكي لا يمَسَسْكِ مكروه.
فقالت الأم:
قبل ساعاتٍ أرجعاهُ إليَّ وهما مذعوريْن، وقالا بأنّ عليَّ دفنُه حيثما أشاء. كان ميّتاً، ولكنه انبعثَ من رُقادِه، وكلّمني...

مثل امرأة حنّكتها التجاربُ؛ استجمعتْ "تيسْليتْ" شجاعتَها وقُوّتَها، وتناولتْ "المسيخ"، وراحتْ تفحصُه كما طبيب خبير بالأطفال الرُّضّع؛ فحصتْ أذنيه "القطِّيتيْن"، وجهه "الجدجدي"، الورمين الذين خلف رأسه، عيْنيه، ثناياه، لسانَه، أطرافَه النحيلة جدّا، عُضوَه الصغير، فراغ عظم الجمجمة الذي عند جميع المواليد الجدد، وعينيه، كما أنها عدّتْ أصابع يديه ورجليه، فقالتْ:
بعض المواليد يزدادون بأسنان، وآخرون بأورام، وآخرون بأذنين وأطراف غريبة الشكل، أو- حتى- من دون آذان أو أطراف؛ وبسبب هذه "المعجزات" يمكن لكِ أن تعتبريه بشراً؛ بشرا مختلفاً فقط، وأن تُعامليه معاملة الأم الرءوفة لولدها الوحيد، واطلُبي من الربّ ألّا يكون أعمى، فلقد رأيتُ عينيه سوداويين تماماً، وليس فيهما ألَقُ البؤبؤ.
آمنتْ "إيطّو" بنصيحة صاحبتها، وتناولت "أسْكرّاي" لتستُرَ أذنيه بعصّابة صوفية برتقالية اللون.
ارتاحت المرأتان لهذا الوضع الجديد، ونامتا كم لم تناما من قبل؛ حتى منتصف صباح الغد.

"أزَكَايْ"في هذه الأثناء، في السوق الأسبوعي غير البعيد عن بيته، يفُكُّ عصّابةَ رأسه الصفراء، ويقرفصُ أمامَ حجّامٍ ليمتصَّ الدمَ الفاسد من قفاه (بواسطة محجمٍ نحاسيٍ مالَ لونُه إلى الزرق)؛ وفي نيّتِه ألاّ يدخُلَ على زوجته إلا بدمٍ نقيٍّ بعد غياب دام عدّة أشهر؛ وفي ضنِّه أنها قد تكونَ أجهضتْ كما عادتها، وكان يأمل أن تكون ولدتْ لهُ وليداً يملأُ حياتَهما بالسعادة.
فإن كان ذكراً سيُسَمّيه "أحمد"، تيمُّنا باسم الفقيه سيدي "أحمد بن محمد"، وإن كان أنثى، سيسمّيها "أمينة"؛ ذكرى لامرأة تقيّة عرفها ذات رحلة إلى بلاد مصر. وسيستقر في بلدته ليشتريَ ماشية بالنقود التي استجمعها خلال سنين من الحفر، وسيحرث قطعة الأرض الموروثة عن أبيه بعدما لم يحرثها بسبب الجفاف.

كما سيعملُ على تربية ابنه تربية جيِّدَة أساسُها فنَّ رعي الماشية، ثم تعليمُه فنون القراءة والكتابة لدى الفقيه سيدي "أحمد بن محمّد"، ثمّ فنون التجارة على يد سيدي "ربّي بن عمران". أما البنت، فلقد رأى لها أن تتعلّمَ ما يكفيها القراءة والكتابة لكيْ تصير قادرة على الإبداع في فنَّ النسج كما أمِّها.
وتذكّرَ يومَ كانت زوجته "إيطّو" شابّة، وقد نسجتْ نسجاً كاد يكون رائعاً من حيث الدّقة والإتقان، غير أنّها أدمجتْ فيهِ "أخطاءً" هندسية. ولمّا رأى منتوجَها ذاك، سارع إلى توبيخها، فاستصبرته قائلة:
- مهلا يا سيدي "أزكايْ"! لقد تعمّدتُ ما فعلت لكيْ أدعَ الكمال إلى الربّ.
فتقدّمَ إليها والفرح يملأ عينيه، وقبّل يديها، وقال لها:
- أنتِ بالربّ، امرأة حكيمة.
فشعرَ بخفّة في دمه وفرحة خفيفة، وتوجّه إلى أحد باعة التُمور ليشتريَ منه كيلوغراماً، وإلى القصّاب منه كيلوغراما لحماً، وإلى الخضّار منه قرعاً أحمر، وحَثّ الخُطى إلى بيته.

رأتْ "إيطّو" ابنها ينسلُّ من صدرها ليَحْبُو باتجاه باب البيت، وهي تتأمّلُه في صمت، عاد إليها ليدُسَّ جسمهُ الضئيلَ في صدرها... فسمعتْ طرقاً على الباب.... إنّه زوجُها.
فسارعتْ لمعانقته بحرارة وهي تبكي:
هذا ابنك يا "أزكَايْ"!
فما إن رآه في تلك الخلْقة، حتى قرفص، وشدَّ على رأسِه بيديْه.
فانحنتْ عليه لتقبّل رأسَه:
بالربّ لا تقسُ على وليدِنا! بحقّ الأسلاف الصالحين، لا تأسَفْ ولا تحزنْ، فهذا نصيبُنا من الخلَف.
فرأى ابنَهُ منكمشاً على نفسه كما شرنقة؛ وتأمّلَهُ في ما بين الدموع والتأسّي؛ فما تمالَك نفسَه، وصَرخَ في وجه زوجته:
ولكنَّك أنجبتِ لي "أسْكرّايْ"...
فردَّتْ مستغربةً:
اسمُهُ - بالفعل -"أسْكَرّايْ"، وهو من أخبرني بذلك.
فما انتبهَ لما قالتْ له، عدا أنّه فكّر بأنها تأثرت لحدٍّ كبير حتى صارتْ تتوهّم. فخاف عليْها من الجنون، وقال لها مواسيا:
- لا بأس! لننتظر حتى الغد!

2

لا تحزن يا أبي! قال "أسكرّايْ".
وحَبَا باتجاه والدِه ليندسَّ في عباءته ـ على ما يبدو ـ لكنّ أباه أبعده، وتراجعَ يزحفُ إلى الحائط الحجَري محاولاً الاختباء فيه، أو الخروج منه، وكانتْ "إيطّو" في المطبخ تُعدُّ أكلة بلحم الماعز والقرع الأحمر على نار الفحم. فسمعتْ زوجَها يصرخُ وكأنّ ثعباناً لسَعهُ. فهرولتْ إليه، فوجدتهُ شاخص العينين، فاغر الفم،أزرق من الرعب؛ والولدُ قد تراجع هو الآخر خوفاً من خوف والده.
إنه يتكلّم...قسماً بالربّ إنه يتكلَّم... لقد قال لي:"لا تحزن يا أبي"...
بَدَلَ أن تستغرب، قالت:
ـ لا تخَف يا "أزكايْ" المحظوظ! ابنُنا يتكلّمُ حقيقةً، ولقد سبق أن كلّمني وأخبرني باسمه؛ وأنا أخبرتُك بذلك، ولكنّك لم تُصغِ إليَّ، وضننتَ أنني على وشك أن أفقدَ عقلي...اسمع يا "أزَكايْ"! إمّا نكون قد أنجبنا مسيخاً أو نبيّا؛ وفي هذه الحال، يجبُ علينا أن نتصرف كوالديْ نبي، وأن نراجعَ قصص الأنبياء، وكيف تصرّفوا مع أولادِهم لأجل أن نعرفُ ـ نحن الآخران ـ الطريقةَ المثلى في تربية الأنبياء؛ فلا نخطئ في حقّهم...اسمع! أن ينجبَ زوجُ من الناس البسطاء نبيّاً، مُصيبة؛ وأن يخطئا في حقّه، مصيبة كبيرة؛ عدا أن يلهمنا الربُّ بما يجب علينا فعلُه. الربُّ نفسُه الذي كان عليه أن يهيِّئَنا لما نحنُ فيه الآن؛ حتى لا نفقد عقولنا أو نطلّق بعضنا؛ حتى لا نقتل الأنبياء... فهل تسمَعُني يا " أزَكايْ" والدَ" أسكرّايْ" النّبي؟
بسحرِ خطابِها، ومن حبِّها له؛ آمن بها، وما ارتاح؛ إذ قال لها:
إذا كانَ هَذا الولدُ نَبيّاً فيجبُ علينا أن نخبر الأسيادَ عنه. فردّت على الفور:
ـ لا!... أخاف أن يقتلوه.

فتناولاه برِفْقٍ ورَهْبَة، ووضعاهُ على مُرتفعٍ جوارَ رسْم يشيرُ إلى الشرق؛ وسجدا.
لكن النبيَّ اضطربَ في مكانه، وقال لهما:
ما أنا إلهُ حتى تسجدا لي؛ أنا مخلوقٌ مختلفٌ؛ أسمعُ كثيراً وأتكلّمُ قليلا، ولا أرى شيئاً بعينيْ؛ وأنتما من أوجداني، وأنا مَنْ عليه السجود لكما إذا جاز ذلك.
فتناظرا في هوْل وصمْت، وقال الوالدُ:
هل علينا أن نسمّيك باسْمك على ذبيحة عقيقة؟ وما ردّ "أسكرايْ".
بيْدَ أنّ "أزكَايْ" استدار منَ سجوده إلى زوجته، وقال:
ماذا علينا أن نفعل الآن؟
فرأى ابنَه يَحْبو باتجاه مهْدِه، ويجرُّ عليه بطّانية صغيرة نسجتها والدتُه من وَبَر الماعز وسقْطَ الزرابي.
وهما ينظران إليه في اندهاش، سمعاه يقول من تحت مخبئه:
سمعتُ خطى ثلاثة رجال بعصيٍّ أرْكانية، يتقدّمهم شيخٌ يحمل سلاحا، آتين إلى هنا.
من يكونوا يا تُرى؟ سأل "أزكَايْ" زوجتَه؟
لستُ أدري و لكن عليَّ أن أستقبل هولاء الضيوف.
فقامتْ إلى صندوق من شجر العرعار، وأخرجتْ منهُ قفطاناً أصفرَ مخطّطاً بالأزرق، وحزامّاً أخضر، وقرطين فضييْن، وشِبْشِباً أحمر مطرّزاً بخيوط مذهّبة، ومُشطاً من قرن الغزال جلبهُ "أزكايْ" من الصحراء، وميدالية جبينية منقوشة، وقارورة "حُرْكوسْ"، وقلماً وضعتْ منه على خدِّها الأيسر شامةً جميلة؛ فبدتْ باللباس والحلّي وبما صنعتْ، أجمل امرأة في الوجود. وقالتْ لزوجها المنبهر:
يجبُ أن تكون أمُّ النبي في جمال النبوّة.
فما رآها جميلة كما ودَّتْ، وإنّما رآها تجسيداً لسلطة الجمال. وما عَرفَ؛ هلْ يسجدُ لها كربّةٍ للجمال، أم يحترمُها كأمٍّ لنبيّ، أم ينامُ معها كزوجة.
ومدَّ نحوَها يداً مرتجفة محاولاً لمْسَ وجْهِها البَهيّ. فتراجعتْ لتقول:
الضيوف على الباب!
فتحَ "أزكايْ" الباب، فرأى شيخ البلدة؛ بكُمّيته المعهودة ورجاله المعهودين. كانوا أربعة رجال مُهابين. فانحنى ليقبِّلَ يدَ الشيخ " سيَدي عبد الله بن عبد الله "، وفعلتْ زوجتُه مثلَه. لكنّ الرجل، سحبَ يدَه، وأمر أحدَ رجاله بأن يسلّمَ "أزكَايْ" صرةَ مال:
أُخبرتُ بأنّ زوجتَكَ رُزقتْ بمولودٍ عائش هذه المرّة، وما لا تعرفهُ هو أن نساءنا أنجبن لي بنتاً ليلة أمس. وما حدث لك ولي من معجزات الربّ؛ أ ليس كذلك يا أيّها الرجل الطيّب "أزكَايْ "؟

بلى يا سيدي! أعلم أنّ نساءَكَ لم ينجبنَ لك منذ زمنٍ بعيد. حفظ لَكَ الربُّ ولَدَيْكَ سِيدي "عْلِي" وسيدي "أُمُوسَى"؛ وعوّضكَ عمّا ضاعَ لك من ولد!
في إشارة إلى ولدَين له؛ اختطفَ أحدَهُما مرضُ الطاعون الذي ضرب البلادَ قبل سنين، والثاني؛ الحربُ التي انخرطَ فيها ضدَّ الثائرين في نواحي مراكش، وبِنْتاً سقوطاً من على ظهْرِ فرس وهي تستكشف الجبال المجاورة.
رأى الشيخُ الشريفُ هذه التذكرة في عينيّ "أرَكايْ" فأشفق على نفسه، وقال:
لا عليك أيها الرجل الطاهر، سأتكلّفُ بعقيقة وَلَدَيْنا. وأمّا المالُ الذي في يدك، فرتِّبْ به حالك، وإن لمْ يكْفِ، فسَأزيدُك.
أحسَّ "أرَكايْ" بعيَنيه تغرورقان من اهتمام شيخ البلدة به وبأهلِه، وقال:
أ لا تتفضّلواْ بإلقاء نظرة على الوليد؟
وهو يعلمُ أن من عادات البلدة ألاّ يدخل الكبارُ، والنساءُ الثُكالى، والنساء المعروف عنهنَّ ممارسة الشعوذة، والحائضات؛ على المواليد الجدد، مخافةَ أن يشمموهم رائحة القتل والموت والسحر والدم، فيموتون في أقل من شهر.
ومن عاداتهم أيضاً، ألا تتمَّ الزيارة إلا بعد ثلاثة أشهر، وقايةً للمواليد الجدد من أمراض الكبار.
قال سيدي "عبد الله بن عبد الله".
تعلم أنّه لا يمكننا ذلك. وانصرف يتبعُه رجالُه.
فدخلا إلى بيتهما تملؤهما فرحة؛ ولم تكن تلك فرحة حصولهما على المال من شيخ البلدة، أو تكلُّفه بطقوس العقيقة وأفراحها، أو بسبب مصادفة ولادةِ ابنهما ولادةَ ابنة أكبر سلطة في البلدة، ولكن بسبب نوعٍ من الاعترافِ بمولودهما منَ قبل ممثل السلطة الحاكمة على البلاد قاطبة.
ومع ذلك، بقيَ لديهم شيءٌ من التحفّظ؛ ماذا كان سيكون موقف الشيخ لو علِم بصفات النبي "أسْكَرّايْ"؟ من المؤكّد أن الشخصَ الذي أتى برجليه ليساعدهما، سيكون أوّل من يأمُر بقتل ولدِهما. "أرَكايْ" يعرف أن السلطة؛ أيّة سلطة، لن تعترف بنبوّة أيّ نبي جديد في العالَم، وذلك بسبب تفسيرها الخاص للكتب المقدّسة، واعتقادها بتوقف الربّ عن إرسالِ الرّسُل والأنبياء والمصلحين. وهو الذي سافر إلى بلدان بعيدة، وسمع عن قصص أنبياء ظهرواْ في تومبوكتو، والنيجر ، وروديسيا، وإيرْتْرا...ولكنهم ماتوا مواليداً جدُداً، وأطفالا وشبّانا؛ وَأْداً وتغْريقاً وحرقا وتسْميماً ورشْقاً بالحجارة ورمياً بالسِّهام والرصاص.
لكنّ الربَّ ما زالَ يُعوِّلُ على الأنبياء لإصلاح أحوال الناس،
وتحريرهم من سيطرة النزعة "الحيوانية".

لا! لَسْنا حيوانات! صاحَ "أزكايْ".
وتقدّم إلى النبّي ليسأله:
هل نحنُ حيوانات؟... أجبني أيّها النبي! وإذا كنتَ تعلمُ الغيبَ، فقل لي؛ هل سيقتلونك؟
فجثتْ "إيطّو" لتطلب من زوجها أن يخفف على نفسه، وبأن لا يُرهق النبي. لكنّه أخرج ولده من تحت بطّانيته ورجّه بين يديه وقال:
تكلّم أيّها النبي! لقد علمْتَ الغيب لمّا أخبرتنا بقدوم الرجال، فهل تعلم مصيرَك؟
فقال النبي:
أبي! إنك تؤلمني. ضعني أرضاً...إن من يعلمُ الغيبَ هو الربّ. أمّا أنا فأسْمعُ؛ لقد سمعتهم قادمين؛ وهذا كل ما في الأمر.
فقال الوالدُ:
سامحني يا وَلَدي؛ أقصد... يا أيُّها النبي "أسْكرّايْ". ها أنا أضعُكَ في مَهْدِك، وأسحَبُ عليك بطّانيتك.

في هذا الوقت، كانتْ إحدى وصيفاتُ السيدة "رحمة" زوجة شيخ البلد، تسحَبُ غطاءً من حرير أرجُوانيّ على "يامْنة" الصغيرة؛ وأمُّها مثقلة بالملابس الفاخرة، والذهب والفضّة، بجوارها، تبتسمُ.
واجتمع في مقصورة الشيخ، رجالٌ من بينهم الفقيهان. تدور عليهم كؤوس الشايْ المنعنع والتمور. وفي علمهم ـ جميعاً ـ ما أقدم عليه شيخُهم من تخصيص حفل عظيم، بمناسبة إنجابِه لطفلةٍ بعد توقُّفٍ دام سنيناً، وبمناسبة إنجاب "أزكَايْ" الرجل الطيّب لولد بعد العديد مَن الإجهاضات.
تحدّث سيدي "ربّي بن عمران" إلى سيدي "أحمد بن محمّد" في بالأعْيُنِ فقط؛ عن القصة العجيبة التي يعيشانها.
هل نكتم السِّر؟
نكتمه إلى الموت.
وماذا عن الوالدين؟
لن يقدرا على البوح.
وماذا عن "تيسْليتْ" القابلة.
لا ضمانة لنا أنّها لن تُفْشِيَه.

كانتْ هذه في بيتها. في ليلٍ لا نظير له في حياتها، مُخرجةً لسانَها، مُمْسكةً سكّيناً ألهَبَتْها نارُ ساعتين من التحريق، والدموعُ تنهمرُ من عينَيها...وبعض الجَداجدِ حولها، وذاك رئيسُ القطط جالساً أمامَها يرقُبُها بعينيْ عسكري ينتظرُ من أحدِهمْ أن يعدِمَ نفسه (لسبب أو لآخر).
إلاّ أن "أسْكرّايْ" في بيته، صَرَخَ بهذا الحرف؛ "لا!".
فتراجعتِ الجداجد، وانكسرَ رئيسُ القطط يتسلّلُ إلى خارج البيتْ وفي عينيه شيءٌ من التهديد. هل تحرق لسانَها لأجل صونِ سرّ النّبيّ أم لا تحرقه لأجل خاطر النّبيّ؟ حارَتْ. تردّدتْ. قرَّرَتْ أنْ تضمنَ لأسيادها صَوْنَ السِّرّ. فما بلغَ النّصلُ المؤجَّجُ لسانَها حتى باغتَها ذلك القطُّ الغريب بضربةٍ قويّة من مخالبه على خدِّها الأيسر، وقليلاً من زاوية فَمِها. لتُسْقطَ السّكينَ الحامية على حصير من قصب. لتسقُطَ هي على الأرض. لتحتفظَ بلسانِها...لتَفقدَ القدرةَ على النُّطق؛ وذلك، ليس بسبب حرِّ النصل، ولكن بسبب ما رأتْ وعاشتْ من وقائع غير معقولة.

بعد حين، شرعتْ "تيسْليتْ" تسْتفيقُ على لهب نارٍ أوقدتْها السكينُ المؤججّة. فنهضتْ تطفئُ النّار بما أُتيحَ لها من أغطية وماء قليل، لكنّ النارَ قضتْ على كل ما تملك من أثاثٍ بسيط وملابس. كانتْ كمجنونة تُحاربُ النارَ ولا تُخرجُ من حلقها سوى أصواتٍ بائسة:" أهـْ ! أهـْ !... وعندما انتهت النارُ من عملها، حاولتْ أن تتكلَّمَ. أن تسأل. أن تناديَ. ولا صوتَ خرجَ من حلقِها؛ فأدْركتْ أنّها صارتْ بَكْماء...آنذاكَ صرختْ في داخلها صرخةً مدوِّية، وانهارتْ باكية.
لمْ يرَ أحدٌ الحريق. الجميع كانوا في بيت الشيخ؛ قصره. يقدّمُون التهاني، أو ينتظرون عطاءً؛ و"تيسْليتْ" ما كان في مقدورها أن تذهبَ إلى أيّ مكان خوفا من أن يغتالَها قطٌّ أو تأكُلها الجداجد.
أمّا نساءُ الشريفِ سيدي "عبد الله بن عبد الله"، فلقد أطْلَقْنَ ألسنتَهُنَّ للزغاريد والأغاني والمديح. وردَّدْنَ مرّاتٍ عديدةً اسْمَيْ "يامْنَة" و"أسْكرّايْ" من غيرِ قليلٍ من السُّخرية من هذا الاسم الأخير.

مرّتْ أشْهرٌ ظلَّ خلالها "أسْكرّايْ" صامتا، لا يبكي ولا يتكلّم؛ وأمّهُ ترضعه من حين لآخر، وتُأكِلُهُ خبز الشعير والخضراوات؛ وذلك عندما اكتشفتْ أنّه يقرضُها وهي غائبةٌ لأجل نسجِ الأثواب والزرابي عند صديقاتها، وعندما كانتْ تنزلُ إلى السوق لبيع شيءٍ من عملها.
أخبرتْ بذلك زوجَها "أزَكايْ" الذي كان ـ هو الآخر ـ يغيبُ عن البيت للعمل في تشجير الكُدى، والجبال المحيطة بالبلدة، والمجاورة لها (مقابل فلس للحفرة)، فقال:

ما دام النبيّ قادراً على تدبُّر أمره، فلا بأس أن يأكلَ ما يريد.
منذ ذلك الوقت، صارا يتركانه وحيدا في البيت دون خوف من أن يصيبهُ مكروه. وكانا يتركان له قليلا من الماء في صحن فخاري صغير، وكسرة خبز مبللّة بحليب الماعز، وبضع تمرات؛ فيجدانه قد شرب وأكل وقرض ونام مثل جدجد متعب.
اكتشفت الوالدة قدرة ابنها على الاكتفاء بذاته عندما كان زوجها غائباً، وَجاءتها امرأة تشتكي لها اختفاء طفل لها عُمْرُه ثمان سنوات. فسارعتا تبحثان عنه ساعات في غابة الأرْكانْ، ناسيةً "أسْكرّايْ"، إلاّ أنّهما وجدتا الطفل الضائع على قمّة شجرة عرْعارْ يأكلُ كريّاته الحمراء مثل جدي.
وعندما عادت إلى بيتها، وجدتْ ابنَها هادئاً بجوار تلك القصعة الفخّارية الثقيلة التي كانتْ فيما مضى، قبرَه.
في اليوم التالي، تعمّدتْ أن تغيب عنه لنصف يوم، فوجدته مكتفياً هادئا. ثم جرّبتْ أن تغيبَ يوما كاملا، فكان كذلك هادئا. فتأكّد لها أن النبيّ "أسْكرّايْ" يقدر أن يعيش بمفرده. أ لمْ يسَبق لها أن رأته يقرض ألياف الأسْل لكي يعيش؟
فما عادا يخافان عليه من شيء.

بحلول موعد العقيقة، لم يكن قد نَبَتَ على قنّة رأس النبيّ الصغير سوى القليل من الزغب البنّيَ؛ "ومع ذلك يجبُ حلقه" كما تقول التقاليد.
فاجتمعت البلدةُ ذات صباح ما بين كُدى و جبال؛ غير بعيدٍ عن وادٍ غزيرِ المياه، على أرضٍ مُنَبَّتة بشتى أنواع الأزهار والألوان. الرجالُ بالدُّفوفٍ والطبولِ في جهة، والنساء قبالتَهم لابساتٍ أحلى ما لديهنّ، وماسكات أيديَّ بعضهنّ في صفٍّ منسجم؛
ومنخرطات في الرقص والعزف على إيقاعٍ رتيبٍ (في البداية) ثم مُتَسارِعٍ، والنشوة قد غمرتْهنّ.
تبعَ تلك الرقصةَ الزاخرة بالإيقاع، راقصُ أسمر اللون، بِرَزّة سوداء، و"غندورة" زرقاء، وخنجر كبير مربوط إلى حبل أسود؛ يطيرُ مثل قرد في الفضاء، ويلعبُ بالخنجر من دون أن يصيبَه بجرح أو خدش.
ثمّ فرقة أوْلاد سيدي "احْماد" البهلوانية، مُشَكلَّةً تارةً أهراماتٍ آدمية، وتارة أخرى؛ سلسلةً من القافزين في الهواء على شكلِ دَوَرَات؛ وكانوا يقعون ـ دائماً ـ على أرجُلِهم (مثل القطط).
وكلُّها أشكالُ راقصة يعبِّرون بها عن رقّة أحاسيسهم وعن إتقانهم للفنون الحربية.
فجأة ظهر رجلٌ بِرَزَّة وجلباب أبيضين، وجلس ـ خلف طاولة قصيرة ـ يرسمُ بمداد الصمغ ما كان يدور في ساحة الفرجة.

ما كان العُرسُ ليمرَّ من دون طقس الاحتفال برمزية "الخصوبة"؛ حيث ظهر رجلٌ لابساً لحاءَ شجر النخيل، ماسكاً بعصا، واضعاً على وجهه قناعا خشبياً؛ وفي مستوى حجْره، ما يُشبه قضيباً وخصيتين، وهي ـ في الحقيقة ـ جزرة غليظة، وبادنجانتان.
والناسُ يضحكون، والأطفالُ يصرخون:"بَرْكَاشو! بَرْكَاشُو!" ومعناه "ذو العصا الكبيرة".
حتى إذا ما انتصف النهارُ، أَتَوْا بالمولُودَيْن الجديدَيْن فيما يشبه سلَّتين مضفورتين من عود "الدفْلى" (الرنْد)، ووضعوهما جنباً لجنبٍ على بساطِ الأزهار، وسطَ ساحة الاحتفال.
فَجيءَ بخروفين ليتمَّ ذبحُهما تزكيةً لاسمَيْ الولدين.
تقدَّمَ أولاً والدُ النبيّ، وأعطوهُ سكيناً لامعة، وانحنى ليذبح الخروفَ الأول قائلاً بصوتٍ عالٍ :
ـ باسم الربّ أزكّي اسمَ ولدي هذا "أسكرّايْ".
ومن بعده (تقتضي العادةُ إعْطاءَ الأسبقية للذكور)، تقدَّمَ شيخ البلدة قائلا:
ـ باسم الربّ أُزَكّي اسمَ ابنتي هذه "يامْنة".
فعَلَتِ الزغاريد والدفوف والطبول والمزامير، وانخرط الناسُ في الرقص والغناء والطرب حتىَ غروب الشمس.
وما تفرّقوا، بل توجهوا إلى بيت الشيخ لأجل قيام ليلة باذخة.
إلا أن "إيطّو" لاحظتْ أن ابْنَها الذي في قماطٍ مُشدَّد، قد غلَّق أذنيه وعينيه ومنخاريهْ، وكأنّه غيرُ راضٍ على ما يجري من أمور، أَو بسبب انزعاجِه من كثرة الأصوات والضجيج. ثم رأتْه يبكي ـ لأوّلِ مرّة ـ بُكاءً أقرب إلى قرقرة جدجد ضائعٍ منه إلى بكاء رضيع. فاستدعتْ زوجها من بين رجال كانوا يقرعون خناجرهم فيما بينهم، في شبه رقصة يراها غير العارف كقتالٌ حقيقي.
هل كان ليأتيها وقد افتقد كثيراً هذا القتال الراقص؟ خصوصا وأنّ خصمَه لم يكن سوى سيدي "عْلي بن سيدي عبد الله بن عبد الله" شيخ البلدة.
كرِهَ أن تستدعيه زوجتُه. ودَّ لو أطلّتْ عليه لتراه كيف ـ وقد جاوز الستّين ـ ما زال قادراً علَى حمل الخنجر واستعماله ببراعة.
كان سيكون سعيدا لو رأتهُ يقاتل ويرقصُ في الحرب الفنيّة بخفّة شابٍّ طموح.
كان سيتباهى بنظرة النساء إليها وهي تنظر إليه في إعجاب، وكان سيزدادُ حبُّهما لبعضِهما.

لكنه بسبب إشارة الرجل إليه بالتوقّف، وبسبب اضطراب مشاعره ما بين الرغبة الدفينة في القتل، والرغبة الآنية في الحب؛ و بسبب انفلات تركيزه عن بريق خنجر خصمِه؛ عالجَ هذا الأخيرُ خنجرَ "أزكَايْ" بفتلة من خنجره، فأسقطَه.
وفي عُرف هذه الرقصة ـ القتالية، أن من يفقدُ سلاحَه، يُعتبرُ منهزما.
فخرجَ "أزكَايْ" من الصفّ غاضبا موبّخاً الرجلَ الذي شتّتَ انتباهه.
زوجتُك تطلبُك لغرض مهمّ. قال؛ فردَّ "أزكايْ" بعصبية:
وأنتَ؛ أ ليستْ لك زوجة تمنعُك من جعلي أنهزم؟
ومع ذلك، هرول إلى جناح النساء، فوجدها تنتظره، و"أسْكرّايْ" بين يديها صامتاً (هذه المرّة)، فأخبرته بما جرى...للنبيّ.
لم يقل شيئاً، بل سارع إلى أخذه من بين يديها، وجرى به باتجاه بوابة القصر.
إلاّ أنّ عبداً من عبيد الشيخ استوقفه:
رآك سيدي منصرفاً؛ وهو يريد أن يعرف هل لديك مشكلة؟ فردَّ:
قل له بأنّ ابني مريض. وانصرف تتبعه زوجتُه.
إلى بيتهما طُرُقاتٌ مُلْتَويَةٌ بين كُدى وتلال، وقرقرةُ جداجد، ومُواءُ قطط، وظِلالُ قَمر ربيعي، وقهقهةُ ثعلب ساخرٍ بعيدٍ، وعُواءُ ذئبٍ يسألُ القمرَ عن سرّ الوجود، وخريرُ نهرٍ مُتْعَبٍ، وحَفيفُ طائر تائه يبحث عن غصن شاغر لكيْ ينام، وأزيزُ نحْلٍ متأخِّرٍ عائدٍ إلى عشِّه، وصوتُ دبيب نمل مُجهد، وخشخشةُ انفتاح أزهار الياسمين، وهديرُ جريان الدم في شرايين والدَيْه...وكلّها أصواتٌ رآها النبيّ "أسْكَرّايْ" تتحدّث عن الربّ ، عن الحب، عن الكون ، عن النبوّة، عن الإنسان المفقود.
رآها أصْواتاً ناطقة بما يجبُ النطق به: الحقيقة...حقيقة الوجود الكامنة في الشجر والتربة، وتلك المُتأحْفِرة في الهواء، والمتحجِّرة في الصخور، والضائعة في الفضاء، والمكتومة في حلق الحيوان؛ والأصواتُ التي يحتقرها الناس عادة، والصادرة عن الأشياء التي هي ـ في الحقيقة ـ كائنات حيّة؛ وكلام الطحالب في الماء، وحديث الماء نفسه، وأشْعار الجداجد، وترنيمات القطط، وهمْس النار، وأنينها، وصخَبها وصُراخها، وتشَهُّدها حين موتِها، وصلاتها الخفيّة (بأن يغفرَ الربُّ ذنوبها)، وأصوات الأطياف من الأموات (من الأحجار، والنباتات، والحيوانات، والبشر)، وبالأخصِّ؛ أدعية الأنبياء والرسُل، والنبيّات والمُرسلاتْ؛ فقراءً كانوا أو مُلوكا...
كما رآها أصْواتاً محدِّثةً بألَم الوجود، آتية من المستقبل. إذ رآها بأذنيه الغريبتين؛ بسمعه الخارق، تحدِّثُ بوجوب دوام الوجود على ما هو عليه، إلى أن يشاءَ الربُّ استبدالَه بوجودٍ آخر...وجود أجمل ما فيه؛ المحبّة والعدل والمساواة.

بمجرّد أن دخلا البيت، رأياهُ ينطُّ مثل جرادَة نحوَ القصعة الفخارية الثقيلة التي كانت قبرَه. رأياهُ بأطرافه الرقيقة يحاولُ رفعَها لكيْ يختبئَ تحتَها. فما كان منهما إلاّ أن يساعدانه على الاختباء تحتَها. فوضعا له خبز شعير وماءً، وثمراً يكفيه لثلاثة أيّامٍ قضّياها منتظريْن أن يخرج، أو يكلّمهما من تحت الفخّار.
إلى أن جاءتهم امرأة تخبرهما بأن "تيسْليتْ" البكماء، رحلت عن البلدة بعيداً، وبأنَّ الفقيه سيدي "ربّي بنْ عمْران" وجَدُوهُ قد اختفى من غرفته الموصدَة من الدّاخل، تاركاً على طاولة أشغاله، قراطيسَ وأحْراز سحرية، وطلاسِمَ غريبة، ورسماً يشبه حشرةً بشرية، وسُؤالاً خطّهُ بيد مرتجفة "ما هو سرّه؟"
عندما افترعوا الباب، كانَ الفقيه سيدي "أحمد بن محمد" الوحيد الذي دخل الغرفة، فرأى ما رأى، وبان له أنّ الفقيه " بن عمران" كان يشتغلُ على سرّ "أسْكَرّايْ" (لكونه تَعَرَّفَ رسْمَه) ليكشفهُ؛ ولكنَّ قوّةً غيبية لم تشأ له ذلك، فاختطفتْه عقاباً له، أو خوفاً عليه؛ فجمّعَ المخطوطات، وخرج ليخبر الناس بأنَّ الفقيهَ اختطفته الجنّ، ومن ثمَّ قرّرَ أن يسكُنَ في مَبْنَى "سيدي عامْر بن عْمَرْ" المهجور على تلّة عالية، وذلك، لأجل أن يعلّمَ الأطفال البشريين أصول الفقه؛ وما قال لهم بأنّه ينوي كذلك تعليم نفس العلوم، للطّلَبة من الجنّ، إرضاءً لآبائهم، لعلّهم يطلقون سراح صديقه.

في الليلة السابعة، سمع الوالدان النبيّ يخمشُ جسد الفخّار بأظافرِه الصّغيرة. فقلبا القصعة، ليخرج من تحتها متسخاً مثل حشرَة الجُعْل؛ بيد أنّه اكتسَب بعض العافية، وما قال شيئاً. فتناولتهُ أمُّهُ برفق، وأبوه يرنو إليه بإشفاق. فجلستْ وأخرجتْ ثدْيَها لكي ترضعه، فرأته يمتثلُ للإرْضاع كما جميع الرُّضّع في سنِّه، من دون أن يعَضَّ على حَلْمَتها. ولأوّل مرّة في حياتها، شعرتْ بأنّها أمّ... مفعمة بالأمومة. أمُّ لطفلٍ (غير عادي)، ولكنْ أمّ. وبسبب شعورها ذاك، نزل حليبُها غزيراً عليه. وهو يرضع ويختنق، حتى إذا ما نضبَ ثديُها الأول، ناولتْهُ ثديَها الثاني الليلَ بكامله. واستمرّتْ ترضعهُ ستّة أشهُر أخرى، وهو ينمو قليلاً قليلا في صمت، إلى أن اكتفى ذات ليلة فقال:
حَانَ وقتُ الفطام.
وكان يرفض التغسيل خلال هذه المدّة.
فحاولتْ مرّة أخيرةً تغسيلَه في قصعة ماء دافئ، ولكنّه أبعدَها عنه؛ ففهمتْ الأمُّ أنّ في تصرُّفات ابنها؛ إشارات. فما أرغمتْ نفسها على تغسيله. ولكنها رأتْ أمرا عجيبا...
تمدّد "أسْكرّايْ" الصغير داخل قشرة القذارة التي تكلّستْ عليه عدّة أشْهُرٍ. ثم شرعَ شقٌّ يفلقُ ظهره من عُصْعُصه إلى قَفَاه. فبدأ ذاك النبيّ يتخَّرَجُ جسماً جديداً من تلك القِشرة مثل ما تفعل حشرةُ زيزَ الحصاد. والأمُّ تتابعُ عمليةَ الانسلاخ باندهاش.

حتى إذا ما خرج ولدُها من شرنقته، رأتهُ أكبر حجماً، وأكثر نقاءً، وأقوى أطرافاً من ذي قبل؛ وقد ظهر شعرُ أسْودَ على رأسه، ففرح قلبُها لكونه لم يعدُ مثل حشرة الجدجد؛ عدا أن أذنيه؛ بقيتا على حالهما (مثل أذنيْ قط برّي)، وجسمَه مدهون بمادَّة لزجة.
شيئاً فشيئا، مدّدَ أطرافه وجرّبها، وفتحَ أذنيه، وحركهما بجميع الاتجاهات؛ ثم غلَّقهما، ثم دار حول نفسه عدّة دورات، حتّى إذا ما جفَّ بدَنُهُ، قام على رجليه يمشي باتجاهِ والدته، وكانتْ هَذَه تنتظرُ أن يكلّمها؛ أن يفسِّر لها ما جرى له؛ لكنّه ظلَّ صامتاً.
فتناوَلتهُ بين يدين مُرتعشتيْن، وضمَّتْه إلى صدرها. وكان أنْ رأتْ لهُ أسناناً وأضراساً متناسقةً وتامّةَ العدد. رأتهُ صار رجلاً في صورة طفْلٍ عُمْرُه أربَع سنين؛ وما كان سوى في شهره التاسع. فخطر ببالها أن تقدَّمَ لهُ وجبةَ طَعامٍ خاصّة بالكبار؛ فقط لترى ماذا سيفعل؛ فقامتْ إلى المطبخ لتعدَّ لهُ شربةً من اللفت والجزر، ولكنّها لم تعثر على أعواد الكبريت، والمفروض أن تجدَ علَى الأقل واحداً منها ضائعاً بين القليل من الأواني الفخّارية التي في ملكها؛ ذلك لأن النّارَ تحافظ دوْماً على فلذات أكبادها، بدَل ذلك، عثرتْ على ولدها واقفاً أمامَ الكانون ينظرُ؛ فتقدّم ببطء، ونفخَ على الحَطبِ، فانضرمتْ فيه نارٌ. وتراجعَ إلى مكانه في الغرفة بجانب الفخّار الذي صار بيته.
تناول الطعامَ في صمت، وهي ترنو إلى حركة رأسه في كلّ مرّة يصدرُ صوتٌ في البيت أو في محيطه؛ بل رأتهُ يحرّكها حتى في لحظات "الصمت العام المحيط بالبلدة كلِّها"، وكأنّه يلتقطُ أَصواتاً بعيدة جدّا. ودّتْ لو كان زوجها معها ليرى ما تراه، وليشعُرَ بما تشعر به من ذبذبات تخترقها من دون أن تقدر على فكّ رموزها؛ ولكنه -الآن- عندَ الفقيه سيدي "أحمد بن محمد"، يحاولُ إتْمام تنقية البئر المجاورة لسَكَنه.
قالتْ "إيطّو" لِنفْسِها: لستُ أدري لماذا تأخّر "أزكايْ"؟ فسمعتْ النَبَيَّ يقول لها من تحت القدر:
- لاَ تخافي عليه!
فأطفأتْ قنديلَ الزيت ثم خلدت إلى النوم.

في الفجر، رأتْ عيناهُ البئرَ السحيقة. احتسبَ في نفسه مقدار الجهد الذي عليه لكي يستخرجَ الماء. وسألَ نفسَه: "هل لديك الأداة المناسبة لكَنس هذه البئر؟" بينما الفقيهُ منشغل منذ الأمس بإعداد الدروس لطلَبته من الإنس والجنّ، إذ لم يسمعه لمّا صرخ:
"سيدي؛ هل لديكَ شمعة أو قنديل لأجل قياس عمق البئر؟"
وهُوَ في لهْو الانتظار؛ زلّتْ قدمُه فسقطَ في البئر.

فقامتْ "إيطّو" من نومها مذعورة لتسألَ ولدَها في ظلامِ الفجر عن حُلُمٍ غريبٍ عاشته؛ موت أبيه، فقال لها:

ليس الآن.
فعادتْ إلى النوم لتحلم ببلد جميل، والناسُ فيه عراة ومتآخون، والأكل شهي ووافر وقريب، والشرابُ المسكرُ كائنٌ هو الآخر أنهاراً، والرحمة تقطُرُ من سماء ذلك البلد، والموسيقى منبعثة من كل شيء، واللذة مستعادةٌ ملايين المرّات، وابنُها "أسْكَرّايْ" جالسٌ على كرسي من فراشات، و"أزْكَايْ" زوجُها ساجدٌ عاشقٌ لها من دون نساء الكون...

في سُقوطه في البئر، تذكّر "أزْكَايْ" طُفولتَه؛ مع أقرانه يصْطادُ الضفادعَ والعقارب، يتجرَّعُ غرقاً ماءَ نهرٍ لم يعُدْ، يصنعُ لُعَباً من طين ذلك النّهر، ينصُبُ الفخاخَ لطائر القعقعة الثرثار الماكر، يُقلِّدُ قهقهةَ الثعالب المتربِّصَة بدواجن البلدَة، يحرّضُ النملَ على بعضه، يُحاكمُ الحشرات الضارّة ويلقي بها في شباك الرُّتَيْلاءات، يُسابقُ الماعزَ في تسلُّق أشجارِ الأرْكانِ الأسطورية...وشاباً؛ يرعى الغنم، يسألُ النجومَ عن بُعْدها، والسماءَ عن دورانِها، يرقصُ مع رفاقه، يُقاتلُهم، يتحدُ معهم ضدَّ شُبّان بلدَة اختطفتْ من بلْدَته طفلة جميلة، ينهزمُ تارة، ينتصر تارة، يَعْشَقُ لهْواً "فاطنة" ثم "مريمة" ثم "ظزوة" ثم "إيطّو"...ورجلاً يَحفر مستقرّات الأشجار، وأسرّة الطرقات، والآبار والسجون التحارضية والقبور...وكهلاً؛ يركبُ التجوالَ، ويسألُ العارفين عن الدّيانات والتاريخ والبلدان...وعجوزاً؛ يُفكّرُ في الاستقرار ببلدته والتفرُّغ لحبِّ زوجته "إيطّو".

هلْ كانتْ تحلُمُ بالجنّة أمْ أنّها كانتْ تستشعِرُ سقوطَ زوجِها في البئر؟...موْتَه...؟ ولكن النبيَّ "أسْكَرّايْ "قال لها:
ـ ليس الآن.
في بضعة سنتمترات متبقيّة لكَيْ يتبدّدَ وُجودُهُ (عند ارتطامه بقَعر البئر)؛ رأى آلاف الجداجد تُسابقه إلى منتهى البئر، مُشكِّلَةً سريراً واقياً له من الموت. ثمَّ رأى مئات القطط آتية من العدم، مُشَكِّلةً سُلَّماً تسلّقَهُ بسهولة حتى السطح؛ ليُطلَّ على القعْر الذي كاد يلتهمه؛ ليرى أنّه لا يرى؛ لا جداجدَ، ولا قِططا. فما شَعَرَ إلاّ وهو يصرخ:" أشهد أنَّ ولدي أسْكَرايْ نبيّاً من أنبياء الربّ".

شعرتْ "إيطّو" بطُمأنينة مفاجئة؛ وقامتْ تُقَبِّلُ ولدَها وتشكُرُه على أمرٍ جميلٍ قام به، لكنّها لا تعلمه.
أخبر "أزكايْ" سيدي "أحمد بن محمد" بمّا جرى له، فما تفاجأ هذا الأخير، وإنّما قال:
ـ كلُّ ما يحدث هو من فعل ولدِك الخارق. فسأله:
هل هو جنٌّ أمْ ملاكٌ أمْ نبيّ؟

لستُ أدري؟ أجابه.
أنتَ من العارفين أيّها الفقيه، فلا بدَّ لك من أن تدري.
فأجابَهُ:
ما أعرف هو أن الجنَّ لا يولدُ من صُلْبِنَا، وأنّه لا يُرى، كما أنّ الملائكةَ لها أجنحة وليس لها جنسٌ، وأنَّ زمن النبوّة قد انتهى...ومع ذلك، فإنّني أعتقدُ أنَّ "أسْكَرّايْ" ولدَك مخلوقٌ غريب...قد يكون "مثل نبيّ"... الربُّ وحدُه يعلمُ.
فجاء رجُلٌ يُخبرُ الفقيهَ المعتكفَ في التلّة، بأنّه رأى في سفره، عجوزا تشبه القابلة "تيسْليتْ"، رفقة مغنّية شابّة تعزفُ قصّةَ نبيّ غير معترف به في بلدة مّا.
ولمّا سألتُها؛ هل أنت القابلة "تيسْليتْ"؟ أنكَرَتْ أن تكون هي.
بحقّ الربّ، انسَ هذاَ الأمر إلى أن يجود علينا الربّ بشيءٍ من علمه. قال الفقيه.
فهمتُ يا فقيهَنا. قال الرجلُ، وانصرفَ يتبعه "أزكايْ".

أبانَ البيتُ المهجور عن رونقٍ جديدٍ بعدما تطوّعتْ النساءُ لكنسه وغسْله، والبُناةُ لترميمه وتقويمه، والصُّناعُ لتأثيثه وتجميله بما يتيحُ جلوسَ الفقيه سَيدي "أحمد بن محمد" في فنائه لدراسة مشروع صديقه المخطوف، ولتعليم طلبته من البشر والجان؛
قبالة حوضٍ فيه نافورة ما فيها ماءٌ.
انزوى الفقيه ليتأمّلُ ما جرى لِ"أزكايْ"، فإذا برئيسِ القطط ذاك الذي هدّدَ "تيسْليتْ"، يظهرُ أمامه فجأة.
ماذا تريد؟ قال الفقيه.
فخطى القطُّ نحوَهُ وجرّه من تلابيب "سِلْهَامِه" إلى خارج البيت؛ إلى البئر، ليراها مفعمة بالماء.
من أنت؟... مَنْ أنتم؟ سأل الفقيه.
فرنا إليه الرئيسُ بعينين بَشَريَتَيْن ملفوفتيْن بالغموض والسحر، وأشار له أن ينظر إلى النافورة القديمة الجافة؛ فإذا بالمياه تتفجّر منها.
وعندما استدار ليسأل ذلك القط عن معنى ما يجري؛ لم يجده؛ فصرخ في الخواء:
من أنتم، وماذا تريدون؟ ولَمْ يتلقَّ أيّ جواب.
" من هم؟ وماذا يريدون؟" سؤالان تردّدا في نفسه لثلاث سنين ونصف بلغ خلالها النبيُّ "أسْكَرّايْ" سنَّ الرابعة...من دون أن يكون عاوده التكلّم مثل الكبار، باستثناء بعض الكلام العادي مثل ما ينطقه الأطفال في سنّه.
كان بالطبع يمشي ويركض ويلعب ويطلب الأكل وينام - دوماً تحت الفخّار- إلاّ أنه كان - من حين لآخر- يغلّق أذنيه ويتألّمُ بسبب أصواتٍ مزعجة يسمعُها هو ولا نسمعها نحن.

إلى أنْ نطقَ ذات يومٍ بهذه الكلمة:
- حان أجلُه!"
فسألته والدتُه:
- مَنِ الذي حان أجلُه؟" فلم يردّ.

في الصباح، طرح الفقيه هذا السؤال على طلبته البشريين:
على أيّ أساسٍ بُنِيَ وجودُ الإنسان؟ فأجابه طالبٌ:
- على أساسِ الخطيئة الأولى.
وقال آخر:
- على أساسِ الصراع بين الخير والشر.
وقال ثالثٌ:
- على أساس العبودية.
فقال "أسكرّاَيْ ":
على أساس عشق الربّ له.
فسألتْهُ أمُّه:
- ما هو الشيءُ الذي على أساس عشق الربّ له؟
فلم يجبْها، واستمرَّ يلْهُو ببكرة الخيط الذي تنسجُ منها له ثوبا.
فقال لهم أستاذهم:
- جميع إجاباتكم جيّدة، لكنها غير صحيحة، إن أساسَ وجود الإنسان والكون بأسره، هو عشق الربّ له؛ هذا هو الجواب الذي أوحيَ إليَّ اللحظة...

في أثناء هذا الدرس المتباعد؛ كان "أزكايْ" يتسلّقُ النخلة المجاورة لبيت الفقيه سيدي "أحمد بن محمد" ليشذبها، ليجنيَ ثمارَها له. فجأة، زلّتْ رجلاهُ، وسقطَ أرضاً، فارتطمتْ رأسُه بحجرٍ بريءٍ كان ينامُ على سنَخِ النخلة منذ ثمانين سنة.

بمجرّد أن استودعوهُ حفرةَ العالم الغيبي، في المقبرة المشرفة على البلدة من على "تلّة الخلود"؛ تلك المجابهة لتلّة سيدي "عامر بن عْمَرْ"؛ وفي الوقت الذي ألقتْ "إيطّو" على "أزَكايْ" قُبلة الوداع الأَخير ؛ تعرّى " أسْكَرّايْ"، وتكلَّسَ في مكانه كما فعل ذات يوم، ثم شرع جِلْدُه يتفسّخ قطعة قطعة، فخرج منه طفلاً كبيراً قويّا ؛ ثم تدثّرَ بمئزر، وقبع في مكانه ينتظر عودة والدته من المقبرة؛ وعندما رأته أمّه، أجهشتْ بالبكاء، وقالت:
- أيّها اليتيم الآن... من ذا الذي سيغطّيك بعطفِه؟
فأجابها على الفور:

- لا يُتْمَ مع الربّ، ولا عطفَ إلا عطفُه، ولن أحزن على موت والدي! لأنّ الحزنَ مُحرّمٌ عندي.
عند سماعها لهذا الكلام، ركعتْ على رجليْ ولدها، وشرعتْ تقبلهما وتستغفره، وهو يحضّها علَى النهوض، ويقول لها:
- سبق أن قلتُ: "لا طأطأة، ولا ركوع، ولا سجود إلا للرّبّ؛ ولا خوف إلا منه، ولا أمل إلا فيه، ولا حزن إلا حزن إضاعة الطريق إليه!
فقالتْ له والدمع يجري على خدّيْها:
أشهدُ للمرّة الثانية أنك نبيٌّ؛ فاستغفر الربّ لأبيك ولي يا فلذة كبدي !
فردَّ:
الربّ غافرٌ لكما إن شاء. ثم سألته:
بحق ربّك أيّ مصير ينتظرنا الآن!
فأجاب:
أمّي العزيزة؛ لو لم تكوني في عذاب الفراق ما قلتُ لك ما سأقول؛ التنبُّؤُ قريب ومتوسط وبعيد، القريب للعلماء، والمتوسط للأنبياء، و البعيد للربّ علا شأنُه، وفي علمي أن كارثة ستحلُّ على بلدتنا خلال ثلاثة أشهر من يومنا هذا، وأنني سأتربّى في كنف شيخنا "عبد الله بن عبد الله"، وأنني سألاقي الويلات من الناس، والتعذيب من طرف أهل السلطة.
فقامتْ لتلبسَه ثوباً جديدا احتفظتْ له به للحظةِ "تحوّلٍ" ثانية.
فقالتْ:
البسْ هذا الجلبابَ ذي اللون السماوي، إنّه يليق بشأنك! فقال:
الألَوانُ لا تهمُّني، لأنني لا أراها،... فأنا أعمى، أ لمْ تدركي ذلك؟
كيف تصدّقه وقد رأتْ قدرته على المشي دون تعثر، ومعرفة الأشياء والناس؟
أمّي! ثقي بأنّني أعمى! ولكن الربّ الكريم منحني القدرة على السماع. فقالت له:
- وثقت بك يا ولدي، لكن هل يؤلمُك هذان النتآن خلف أذنيك؟ فأجاب:
فقط عندما يمُرُّ طائرٌ حديدي فيَ السماء، أو يحدث زلزالٌ في الأرض أو في البحر أو في السماء.
فكان عليه أن يسألها هذا السؤال:
أمّي؛ هل من خبر عن " يامْنة" ابنة شيخ البلدة؟
هل تُحبُّ أن تراها؟
بل أحبُّ أن أسمعها!
عفواً؛ أقصدُ هل تحبُّ أن تكون معها؟

أجل؛ أحبُّ أن أكون معها.
ولكنّها طفلة صغيرة وأنتَ...
...وأنتَ تبدو طفلا كبيراً، ولك عقلُ أكبر من عقول الكبار، وعلمُ يناهز علم الأنبياء. أ ليسَ هذا ما كنتِ تريدين قولَه؟
... -
أمّي! اعلمي أنّ في كلِّ واحد منّا طفلُ وبالغُ وعالمُ وجاهل. وإنّ طفيليتي هي ما يدفعني إلى "يامْنة"؛ أ ليسَتْ هي توأمتي بشكل مّا؟ ثم إنّني أعلَمُ أنّها ستحبُّني في يوم من الأيام... أجل يا أمّي! ستحبُّني "يامْنة" حبّاً لا مثيلَ له، وسألقى العذاب الشديد جرّاءَ هذا الحبّ؛ لكن لا تقلقي يا والدتي العزيزة؛ ستكون أموري على خير إن شاء الربّ!
تأمّلتهُ بعينين مشفقتين؛ أذنيه الغريبتين؛ نتأيْه الذين خلف أذنيه؛ فاتسخرجت من جنبها "رزّة" بنيّة، وشرعتْ تعصّبُ رأسَه بها... حتى أخفتْ معالمَهُ غير البشرية، فقالت له:
في علْمي أن الأنبياء يلقوْنَ الويلات من أهاليهم، فيا تُرى أيُّ نوع من الويلاتِ ستلقاها يا بُنَيَّ؟
فقال:
انسَيْ هذا الأمر! فلقدُ كتبَ على البشريين أن يتعذبوا على وجه الأرض؛ ليسَ بسبب خطيئة مّا اقترفها آباؤهمَ الأوّلون، ولا بسبب إرادة شرّيرة، وإنّما لأن الربّ شاء أن يكرّمهم بالعذاب، ويرقيهم به إلى قمّة الإنسانية التي في عِلمه.
فاستدركتْ قائلة:
هل شيخُ بلدتنا سعيد؟ أراهُ يمتلك المال والجاه والسلطة؛ فهل هو سعيد؟ فأجابَ:
إنّما الناسُ تحكُمُ على المظاهر... أمّي؛ اعلمي أن السعادةَ المبحوث عنها في الأزمنة والأمكنة ليستْ سوى مجموعُ اللحظات السعيدة التي نعيشها في أحايين متباعدة؛ أن نحبَّ...سعادة. أن لا نتألّم...سعادة. أن نشعر بالاحترام تُجاه أنفسنا...سعادة. أن نحترمَ الناسَ قاطبة...سعادة. أن نعطيَ الحقَّ للمظلوم...سعادة. أن نرقص على إيقاع وألحان الطبيعة...سعادة. أن نستقبلَ الموتَ بقلب رحب...سعادة. ولكنّ أقوى لحظات السعادة هي عندما نصلّي للربّ و نشكُرُه على ما آتانا من جهلٍ فيه سعادتُنا، ومِن علمٍ فيه سعادتُنا كذلك ...وأمّا السعادةُ المبحوث عنها، فما هيَ إلاَّ الشعور من الاقترابِ منه، من دون إدراكه، وأمّا رؤيتُه فمستحيلة على جميع الخلق باستثناء ملائكته ورُسُلِه.
انزِلْ من منبرك فلقد حان العشاء! قالت الأم.
وكان أنْ رأتْهُ نبيّاً خطيباً متعباً من تحوّلِه، فأشفقتْ عليه.

في أحد الأيّام، حلَّقتْ جرادةٌ كبيرة في السماء بضجيجٍ يشقُّ الآذان. وخرج الأهالي ليروْها تَعلو وتنخفض، مخلِّفة وراءها دُخانا أسود. وكان أحدُ أجنحتها مشتعلا؛ فجأة، انفجرتْ خلفَ الجبال.
قال شيخ البلدة:
- هي ندير كارثة.
وقال الفقيه:
- هي تذكرة من الربّ.
و قال "أسْكَرّايْ":
- هي طائرة معدنية وفيها رجلان.

عندما تفقّدَ الرجالُ مكان سقوط تلك "الجرادة الضخمة"، وجدوا قطعاً حديدية وعظاماً متفحِّمة لرجُلين، فقال سيدي"عبد الله بن عبد الله" للطفل "أسْكَرّايْ" :
كيف عرفتَ أنها طائرة حديدية، وبها رجلان؟ قل! من أخبرك؟
صمت...فتقدَّمَ رجلٌ بكيسٍ.
أيّها الحاكم؛ وجدتُ هذا الكيسَ غير بعيدٍ عن موقع سقوط الجرادة الملتهبة.
عندما فتحوا الكيس، وجدوا فيه رسائل مخطوطة باللغة الفرنسية.
"الجرادة الضخمة"؛ كانتْ تحملُ الرسائل. قال الفقيه.
هل هو البريد؟ سأل الشيخ.
أعتقدُ ذلك! قال الفقيه.
- ويبقى السؤال؛ كيف لطفلٍ عمُره أربع سنوات أن يعلم؟
لستُ أدري. قال الفقيه.

في مساء اليوم التالي، أتى البريدُ المحلّي رجلا بجلباب قصير وعصاة، و رِجلين حافيتين متّسختين بالوحل، ورسالة مستعجلة من قاضي المنطقة الشمالية...
"الأعرج".
تقول الرسالة، ستندلعُ حربٌ في الجهة ما بين الحاكم الأكبر والمتمردين عنه... المطلوب هو المساندة بالمال والأسلحة والرجال. قال الفقيه لشيخ البلدة.
في الوقت الذي شرعَ صُناعُ الأسلحة في صنعها، ومحصّلو الأموال في تحصيلها، ومجنّدو الشباب في تجنيدهم؛ أظلمتِ السماء بأسْرابٍ من جرادٍ أخضر. جراد لا أقدر منه على التهامِ المزروعات والأشجار.
كنّا في حرب، فصرنا في حربين. قال الشيخ.

فخرجت النساءُ والأطفالُ والشيوخ لينقذوا مزروعاتِهم وأشجارَهم من الجرادَ، وكوّموا منه الأكوام. فتقدّم بعضُهم من الفقيه سيدي"أحمد بن محمد":
يا فقيهَنا؛ ماذا سنفعلُ بهذا الجراد الذي أكل رزقَنا؟ فقال لهم:
السماءُ بحرٌ والبحرُ سماء، وما يخرجُ من البحر حلالٌ كلُّه، وعليه، فإن الجرادَ حلالٌ؛ وما هو إلا لحم من عشب.
فراحت الأهالي تقتل وتُجمِّع الجراد في سلال من قصب وفي أكياس من ثوب، ومن يشويهَ في الأفران، ومن يمَلِّحُه للأيّام الآتية...
كان حلول الجراد كارثة، ولكن الأهالي عرفوا كيف يحوّلونها إلى محصول فلاحي قلَّ نظيرُه.
أكثر من ذلك؛ باعوه إلى البلدات المجاورة، ومن ثمنه شحذوا المزيد من الأسلحة، وجنّدوا المزيد من الرجال لأجل أن ينتصرَ الحاكم الأكبر على المتمرّدين.
دامتْ الحربُ سنتين، انتصر خلالَها الحاكم الأكبر، فزاد نفوذ سيدي "عبد الله بن عبد الله"، لكنَّ رجلاً من المقرّبين، رأى أنّ الشيخ أخطأ لمّا أرسلَ ولدَه إلى الموت.
أيها الشيخ! لقد أخطأتَ عندما أرسلتَ ولدي "عيسى" إلى الموت؛ ولقد بان لي أن عليكَ أن تتنحّى عن مَشْيَخة البلدة.
وفي عينه طمعٌ وشرّ خبره الشيخ. شرٌّ معناه "أحدُنا، يجب أن يموت". لا خيار؛ لا مساومة؛ لا حلّ آخر... عينٌ في عين؛ كيدٌ في كيد؛ شرٌّ في شرّ... ولا احترام، ولا خوف، ولا خضوع بعد الآن.
قال الشيخُ:
تفكّرْ أيها الرجل في عاقبة ما أنتَ مقدمٌ عليه، قد تندلعُ حربٌ أهليةٌ لا نعرفُ عواقبها.
لا أريد أن أسمع! تنحَّ عن زعامة البلدة.
أ لا ترى أنّ علينا الاحتكامُ إلى مجلس البلدة؟
الاحتكامُ بيننا الآن. قال الرجلُ وهو يشدُّ على مقبض كُمّيته.

توقّف "أسْكرّايْ" على بعد فرسخين من البلدة عن سَوْق الماعز إلى المرعى، والحزنُ بادٍ على عينيه السوداوين:"لا تفعل!" قال في نفسه. في الحين، ظهرتْ ما بين الشيخ والرجل المتمرّد، قطط شرسة عديدة مُهدِّدة. فتراجع الرجلُ من الرعب، في حين ظلّ الشيخ ثابتا في مكانه.

3

هي تنسُج بداخل البيْت ملاءةً أرجوانية مخطّطة باللون الجلّناري، ومُوَشّاة برُموزٍ لم ترَها من قبل؛ رموز مثل أسماكٍ حمراء سابحة في سماءٍ متبقِّية، وأخرى مثل علامات اللانهائي مبثوثة في أرجاء النسيج، وأخرى على شكلِ طيور زرقاء تسبحُ في محيطٍ من تربة قديمة. وهي تشعر بأنّها في لحظة إبداعٍ خاصّة؛ بل أخيرة...

من حين لآخر، كانت تتوقّف عن الإبداع، وتضعُ راحةَ يدِها على صدرها، وترنو من الباب إلى شمسِ غاربة في شفقٍ حزين.

وهو في الخارج جالسُ القرفصاء يستمعُ إلى قلبِها الحائر.

رآهُ مُضطرباً؛ ينبض بشكلٍ عادي لبضع دقائق، ثم يضربُ بعنف صدر والدته؛ وفي بعض المرّات، يصدرُ قرقرة واهنة. رآهُ بسمعه كما نرى اليومَ بالصدى الأجنّةَ في أرحام أمّهاتِها، وجَسَّدَ صورتَه خلف عينيه السوداوين. رآه قلباً مُضطرباً يتشبّثُ بالحياة...يقاومُ الموت... كائناً حيّاً بذاته؛ بمختلف أعضائه؛ بنَدْباته القديمة؛ بجراحِه الجديدة؛ بترجّيه الرّاهن:"متى أتوقّف عن ضخّ الدماء في قلبِ هذه المرأة النبيلة "إيطّو"؛ وتخلد إلى الراحة الأبدية؛ سأستمرّ في الدعاء للنبيِّ "أسْكرّايْ" بالقدرة على تحمّل عبءَ النبوّة؛ وأن يرزقه نعمة التحرّر من قلق الوجود".

فانزلقتْ على خدّه دمعةٌ برتقالية اللون. فأمسكها بين أصابعَ مرتعشة، وقال في نفسه:"قدْ أتاك الخلود يا والدتي، فتهيئي له بالصبر!". لحظتئذ شدّتْ على صدرها، تاركَةً النسيجَ الذي بين يديْها إلى أن تُنهيه أو لا تُنهيه في عالم آخر.

فاصدَر "أسْكرّايْ" صوتاً من خلف حلقه ليرى والدَتَه مثل نائمة.

دخل النبيُّ ليرى أمَّه ميتة على نسجهَا، فانحنى عليها ليقبِّلها قبلة أخيرة؛ ثم جرى إلى بيت الشيخ سيدي "عبد الله بن عبد الله" ليخبره.

صرتَ يتيماً بحق أيّها الطفلُ الغريب. قال له.

ثم ضمّه إلى صدره.

بعد أن أهالواْ التراب على السيّدة "إيطّو" في مقبرة "الخلود"، رشّوه بماء الزهر، وغرسواْ فيه باقات الريحان والحِنّاء؛ فقال شيخ البلدة:

أيُّها الناس؛ سأربّي الطفل "أسْكَرّايْ"، وسأحفظ بيته ومالَه إلى أن يصير رجلا.
آنذاك، تقدّم سيدي "مبارك" ليقبّلَ يدَه فيما يُشبهُ طلب العفو؛ وكذلك فعل ابنُه "أُموسى"، وباقي الأهالي تعاقبواْ على تقبيل يده، باستثناء ولده "عْلي" الذي ما أحبَّ أن يصفحَ والدُه عن ثائر هدّده بالقتل، وأنْ يرَعى طفلا أعمىَ أبوهُ حفّار قبور...
انتبه الشيخُ لامتناع ولدِه "عْلي" عن تقبيل يدِه مثل ما فعل الأهالي؛ فقال:
ما منعك ألاَّ تُقبِّلَ يدي؟
فعلتَ ما لا ينبغي فعله وأنتَ ربُّ البلدة.
ماذا فعلتُ ممّا لا ينبغي عليَّ فعلُه؟
عفوتَ عن ظَالمك، وتبنّيتَ طفلا لا خير فيه، وقلّلْتَ من شأن نفسِك عندما استدعيتنا للوقوف على قَبر رُتَيْلاء.
قاصداً "إيطّو" النسّاجة.
فتقدّم الفقيه سيدي " أحمد بن محمد" قائلا:
اصمُتْ أيها السيّد! لا تتكلّم في أمور لا علم لك بها!
أنتَ جاهلٌ أيُّها الفقيه، وأبي أكثرَ من الأخطاء. أراهُ صار هرماً، وفقد صوابَه، وعليه أن يتنحّى عن السلطة.
من غير أن يعلم السيّدُ "عْلي" أنّه ليس إلا ابن أمَة. وبسبب جهلِه لما هو عبدٌ؛ ارتأى أن ينال "السيّادة" بعزل والدِه عن طريق إغرائِه في الخطايا؛ مع بعَض المساندة الخفيّة من طرف سيدي "مْبارك".

أراد الناس أن يروْهُ يتصرّف كأعمى؛ أن يمسك بعصاة؛ أن يتحسس بها الحجارة والحُفَر؛ أن يطلبَ المُساعدَة من الناس؛ لأنّ الناسَ غريبو الأطوار لمّا يتعلّقُ الأمر بشخص مختلف. "أسْكَرايْ" أعمى لا يرى الألوان، فكيف له أن يرى الأشياء؟ ولكونه فهِمَ طبيعة البشريين، ارتأى أن يتصرَّف كأعمى، وأن يخفيَ حقيقة قدرته على رؤيةَ الأشياء بسمعه.
بإمكانه أن يرسَم صورةً صوتِية للأشياء حتى لو كانتْ بعيدة بعشرات الفراسخ؛ بل يقدر على تصوير الأحاسيسَ والأفكار الخفية في كل رجل وامرأة.

" شُكراً لك أيُّها الربّ على منحكَ أيّايَ ملَكةَ السّمع الخارق! الإبصارُ محدود -على كل حال- فلا أحد يقدر على رؤية أبعد من استدارة الأرض، وليس في مقدور أي كائن حيٍّ أن يرى أبعد من السماء. الصقور نفسها لا ترى أعمق من قشرة الأرض، والحيتان -بالرّغم من عظمتِها- لا ترى أبعدَ من الأفق البحري"؛ قال لِنفسَه. ثم اتّخذَ شكْلَ طفلٍ

أعمى في السادسة من عمره: أغمض عينيه وأدار قليلا رأسَه، وحناها ببطء، وتحسَّسَ يدَ رجُلٍ بجانبه طالباً منه أن يدلّه... مثل أعمى حقيقي.
إذاك أشفقَ الناسُ عليه كيَتيمٍ أعمى يستحقُّ شفقةً مُضاعفة. باستثناء سيدي "علي" الذي راحَ ينظرُ إليه بعينين يملؤهما الحقد.

في قصْر الشيخ، قادوه إلى غرفة صغيرة مقابلة لغرفة "يامْنة"
هذه غرفتُك.
فرآها على قدر من الاتّساع، بجدران مرصّصة بالزليج، وسقف بعوارض من صفصاف مستوردٍ من أحواز مرّاكش، وثريّا مؤلّفة من قواقع صدفية، ودواوين صوفية، وزرابي من وبر الجمال، وطاولة من شجر العرعار عليها أباريق وأكواب زجاجية خضراء.
فَجاءَهُ سيدي "عبد الله بن عبد الله" قائلا:
لا تحزن يا ولدي! لقد صارتْ لك أسرة جديدة، واعتبرني في مقام المرحوم والدك.
وهو يضمّه إلى صدره، رأى النبيُّ قلبَ الشيخ أكبر حجماً من قلوب الناس، بدماءُ أرجوانية مثل دماء السمك، ونبضٍ ضعيف، وشرايين متصلِّبة.
قلْ يا ولدي؛ ماذا تريد وأنا سأحقّقه لك!
ليس لي من طلب سوى أن تجد لي عملا، وأنْ أتكلّف بنظافتي ولباسي.
فنظر إليه الشيخ بحزن:
كنتُ آمُلُ أن تتعلّم الفقه. فأجابه:
أمّا أنا فأريد أن أكونَ راعيَ ماشية؛ ولا تسألني كيف سأفعل و أنا أعمى...
لك ما أردتَ أيّها اليتيم. قال الشيخ؛ وانصرف من دون أن يدري أن "أسْكرّايْ" تعلّم الفقه لمّا كان يتابع دروس الفقيه بسمعه الخارق، وأنّه لا يرغب في أن يرى الناسُ خلقتَه "الحيوانية" ، وأنّه أوحيَ إليه أن يمتهن مهنة الرعي كما فعل العديد من الأنبَياء والرسل، ليعرفَ الفرق بَين قيادة العقل المتحرّر، وانقياد الجوارح المستعبَدة.
فجاءت "يامْنة" بكسوة سندسية، وشبشب أصفر مطرّز بالصقَلّي، و عِقد من اللّبان، وخلخال من فضّة حول كاحلها، وعطر براعم الورد.
رآها آتية في حبور، ثم واقفة أمامَه في إعجاب.
"يامْنة" صغيرة، لكنّ قلبَها يتسعُ لحبٍّ أبدي.
ورآها على بُعْد عشر سنوات أخَر، امرأةً / ملاكاً بإنسانيتها النادرة، وهدوئها الحكيم:
كانا (في المستقَبل) جالسَيْن على نسْجٍ صغير، قبالة المحيط، على رمال ذهبية في قرية الصيادين غير البعيدة عن بلدتهما. صيفاً، غروباً، عشقا، يداً في يد، وقلباً في قلب؛ وهي تحدّثُه في عنْ شيءٍ ينتابها مثل حلم؛ عن لحنٍ بعيدٍ يأتيها ليلاً عندما تُخضع نفسها للنوم.

ـ إنه مثل عزفٍ على كمانٍ بحجم السماء؛ لحنٌ يعزفُه كائنٌ خفيّ، ويغمرُني مثل سابحة من ضوءٍ وموسيقى.
رآها نبيّةً على شاكلته. فأمسك بيدها، ومرّرها على وجهه ببطءٍ حالم؛ حتى إذا ما لامستْ يدُها عينيهِ، أبرق فيهما ألقُ الإبصار...
للحظة، رأته يراها بعينيه كما يرى العاشق عشيقته.
للحظة، رأتْ صورتَها في عينيه وهي جالسة على عرش مُلك غريب؛ قوائمه أربعة: التخلّي، التعالي، الصمت، والعبادة؛ وكُرسيّهُ العشق، وسندُه الغفران.
ولقد رأى في عينيها ما رأت في عينيه. فاتّكأ عليها بقبلة أعادتْه ـ في الحين ـ إلى صورته الأولى.
لحظتئذ، مالت الشمسُ إلى مهدها، فقامتْ "يامْنة" للرواح، وبدل أن يلتقط النسْجَ الصغير، جمعَ "أسْكرّايْ" في يده مساحة الرمل الذهبي الممتدّة على طول فراسخ، وأودعها جيبَ سرواله؛ تاركاً الشاطئَ على شكل رقّ حَصَوي.
لم تنتبه "يامْنة" لما فعل "أسْكرّايْ"؛ إذ كانتْ عمياءَ بسبب العشق؛ إلى أن اعتلتْ صهوةَ الحصان الذي أتى بهما؛ فرأتْ امتناعَه عن السير؛ ورأَتْ الشاطئ معرّى من رمْله:
ماذا فعلتَ بحق الربّ؟
فأخرج "أسْكرّايُ" الرمْلَ من جيبه، ونثَره؛ فإذا الشاطئُ يستعيدُ كِساءَه الذهبي من جديد.
من أنتَ يا "أسْكَرّايْ"؟
أنا نبيّ...فهل تُؤْمنين بي؟
أنا أومنُ بك عاشقاً لا مثيل له، وبأنّك قادرٌ على إحداث المعجزات.
"يامْنة"؛ عِديني بأن تكوني لي،وبصوْنِ عصّابتي. فنظرتْ إليه بعشق وإشفاق:
بحقِّ الرب أعدُك بأن أكون لك، وبصوْنِ سرّك.
فضمّها إليه لمّا رأى قلبَها يترنّحُ من فرط العشق.
انظُري يا "يامْنة"! هذا حجرٌ يُعتقدُ أنه أصَمّ أبكم، والحقيقة هي أنّهُ يحكي عن أساطير مثيرة... هو ليسَ من البرِّ كما تعتقدين، بل أصلُه من قعر المحيط، من شقِّه الطولي الممتدُّ من جنوب الأرض إلى شمالها، من صُهارة معدنية متدفِّقة من باطن الأرض. إن الحرارة الكونية ما زالتْ في عروقه، وهو يخبرني عن أسماك اختفت منذ ملايين السنين، وعن أساطيل بحرية غرقت بسبب الحروب وجشع البشرية، وعن ملايين الصيادين ممّن التهمهم البحر، وعن مدُنٍ عريقة ثمّ إغراقها...

فأمْسكتْ بذلك الحجر لتراهُ مثل جميع الأحجار؛ جماداً لا رونقَ فيه...حجراً يمكن أن يصلُح للبناء، لكن لا يمكن -قطعاً- أن يصلح لِحَكْيِ الأساطير.
فحزنتْ عيناهُ.
لماذا أنتَ حزينٌ أيّها النبيّ؟
سيأتي زمنٌ مفسد لنقاء الحجارة؛ ستخالطُ بنيتَها مادّةٌ سوداء كريهة في مثل الثوب وما هي منه، وفي شكل المعدن، وما هي منه...لن تبقَ المعادن على حالِها، ولا النباتاتُ، ولا الحيوانات، ولا البشرية...كلُّ شيءٍ، كلُّ موجودٍ سيتفسّخ. والناسُ الشريرون، رأيتهم مثل الجراد، وما تركواْ أرضاً فيِ البرّ والبحرِ والسماء إلاّ اغتصبوها بالسّيف والنار، ولطّخواْ عذريتَها ...كما أنّي رأيتُ الناس الأخيار أنفسهم يقترفون خطأ تأليه الأنبياء، وعبادة الأيقونات سواء كانت رسوماً، صوَرا، منحوتات، أو ألوانا...أسماءً كانتْ أو أضواءً أو نقودا...
لحظتئذٍ؛ أشفقتْ عليه من مسؤولية النبوّة؛ وللتخفيف عليه من هولِها، ضمّتْهُ إلى صدْرها وذوّبتْهُ فيه كما تذوبُ الزبدةُ الموضوعةُ على فخّار ساخن.
كان ذلك في المستقبل.
ولكنّه اليومَ، وهو طفلٌ أعمى في الثانية عشرة من عُمُره؛ مازالَ يتربّى في حِضن سيدي "عبد الله بن عبد الله" ويرعى قطيعَه؛ القطيع الذي ربا عن ألف رأس منَ الماعز، ونصف ألف من الغنم بفضل حسن توجيهيه له.
ما رأى الناسُ مثله راعياً للأغنام وهو أعمى في نظرهم. بل كانوا يضنّون أنّ الكلبَ الذي معه هو الذي يقود القطيع إلى المراعي الخصبة، ويحميه من الذئاب. والحقيقة هي أن "أدَايْ"؛ الكلبَ الأسودَ، هو من يعتمدُ على " أسْكَرّايْ" في حماية القطيع.
وقد جاءت الذئابُ مراراً للنيْل من القطيع، وكان"أدَايْ" يرى بعينيه الكلبيتين، الحوار الدائر بينها وسيّده حول وجوب احترام حقّ الغير، واللجوء إلى ما سخّره الربُّ من طعام حر في الغابة.
لم يكن النبيُّ ليقبل أعذار الذئاب سواءً كانتْ جائعة أو نفساء أو مرضعة..."الرزقُ الذي يُبنى على الجهد، في ملك المُجاهد" كان يقول لها. "وإن أردت رزقَك أيتها الذئابُ المحترمة، فابحثي عنه في غير هذا المكان!" وكان بعضها يستَعطفُه طالباً مَعْزة أو شاة." فيقول لها:
ـ ما هي في ملكي حتى أعطيك منها، هذا المالُ ملكٌ للقبيلة، ولو كان لي لأعطيتُك منه بقلب سعيد".
لِيرى "أدَايْ" الذئابَ منصرفةً في كسل، ومكْر.

في سنتِها الرابعة عشرة، صارتْ "يامْنة" امرأة ساحرة بجمالها؛ وصار هو الآخر رجلا قويّاً. وهُما على سطح بيت الشيخ ينظران إلى امتداد بلدتهما: غاباتِها، تلالَها، جبالَها، حيواناتِها، سماءَها التي اكتسبتْ لونا أزرق حديدياً باردا؛ وإلى غروبها الغَريب؛ إذ كان غَروباً أبيض؛ شدّتْ "يامْنة" على يده وقالت:
ما معنى هذا الغروب يا "أسْكرّايْ"؟
معناهُ ليلٌ أبيضَ سيحلُّ قريبا علينا؛ ومعناهُ كذلك...
قل ما هو معناه الآخر؟ لماذا صمتتَ؟
أخوك "علي" قادم...
فجاء "عْلي" وفي يده خنجَرٌ يلهو به.
أنتهما هنا إذن؟
ماذا تريد يا "عْليّ" سألتْ.
لا شيء...سوى أن تبتعدي عن ابن الرُّتَيْلاء هذا.
لماذا؟..لماذا أنتَ تكره " أسْكرّايْ"؟
لستُ أدري؛ وإنّما شيء مّا يُرغمني على كرهه...
سأنصرف الآن. قال "أسْكرّايْ"
لحظتئذ، حدث صراخ:"مات الشيخ!...

صار سيدي "عْلي" شيخ البلدة إذن.
فكان أن عوَّض رجال أبيه برجال خبثاء على رأسهم سيدي "مْبارك" والد المقتول "عيسى" في حرب الثائرين على الحاكم الأكبر للمنطقة الشمالية، كما أكرَه أخاه "أُموسى" على الخروج من البلدة والعيش في قرية الصيادين، في بيت متواضع، وليس له من رزق سوى قصبة صيد.
منذ هذه اللحظة لا بقاء لأعمى في بيتنا! قال الحاكم الجديد.
هكذا عاد "أسْكرّايْ" إلى بيت والِدَيْه.

عند ولوجه البيتَ، جمعت العناكبُ أنسجته، والجرذان نظّفتْ أروقته، والجداجد استفّتْ غُباره، والقطط نفضتْ زرابيه وأفرشته، والنملُ استخرج حتاتة الأرض من جوانبه، ...إلى أنْ صار بيتُه - من النظافة- وكأنَّ والدتَه "إيطّو" ما زالتْ هنا.
فجلس ينظرُ إلى قصعة الفخار التي كانت قبره وملجأه. رآها استبدَّ بها الزمانُ، وشقّقها النسيان، وحَتْحَتَها تعاقبُ الفصول.
في الليل أشعل شمعة - ليس ليرى بواسطتها حدود المكان- وإنّما ليتذكّرَ بدِفْئِها، دِفْءَ والِدَتِه، وبِلهيبِها، حرصَ والدِه على القوّة.

ثم توجّه لمحرابه القديم، وصلّى للرب:
- ربّيَ الرحيم، أريدُ أن أستريحَ ساعةً من عناء الوجود!
فتمدّدَ على الأرض ببطء، وأغمض عينيه ليفتحهما في صباح اليوم الموالي، وعمرُه قد صار عشرون سنة.

خلال سُباته الطويل، عاشت البلدةُ تحت وطأة جليد مفاجئ؛ نفقتْ جرّاءَه الماشية، وقلّ الحطب، وضَاقت التجارة، واستبدّ بالأهالي الجوع والمرض. لسنة كاملة، حار خلالها الشيخ سيدي"عْلي بن عبد الله " لمّا رأى الرجال والأطفال والنساء خارج بيوتهم ملتحفين الملاءات، وجالسين على الكُدى، ومنحدرات الجبال الثلج بوجوهٍ أحرقها الجليدُ، ناظرين إلى سمائهم وهي ما زالتْ ترسلُ عليهم ندف الثلج؛ حتىً إذا ما أحسّوا بالجوع الأخير، نهضوا بالعصي والكُمِّيات والسيوف إلى بيت الشيخ "عْلي"، ليطالبوه باستنجاد الحاكم الأكبر.
في حياتنا كلِّها لم نعشْ كارثة مثل هذه. قال رجل.
في عهد والدك الشيخ سيدي "عبد الله بن عبد الله" لمْ نعشْ الجوع أو الفقر أبدا.
وهو من شرفَة بيته، ينظرُ إليهم باشمئزاز:
أنا سيّدُكم، ولكنني لا أقدر على إزاحة الجليد. فانتظروا حتى تعود الطّبيعةُ إلى طبيعتها!
وقال ثَالثٌ :
- أذكرُ أن كارثة الجليد حلّتْ بنا صباحَ دخول "أسْكارّايْ" في غيبوبته...فإمّا أن تذهبَ لطلب المغفرة منه أو نقتل...
" أسْكرّايْ هذا جلب لي الكثير من المشاكل " قال "عْلي" في نفسه. وللجمهور الثائر قال:
طيب! سأفعلُ. وكان من بين الرجال الفقيه سيدي "أحمد بن محمد".
فساروا إلى بيتِ النبيِّ ليجدوهُ ما زال نائما، وبجواره كلبُه "أدايْ"، و"ظزوة" صديقة والدته.
فقال له الشيخ سيدي "عْلي":
- بجاهِ والدنا سيدي "عبد الله بن عبد الله"؛ اجعل الجليد ينصرف عنّا!
ثم انصَرفواْ إلى بيوتهم آملين أن يكون "النبيّ" قد سمع تضرعاتهم.
وكان في الغد، أنْ أطلّتْ شمسُ، وذاب ثلجُ، وحلَّ ربيعُ، وأنجبتْ شياهُ، وجاءَ دعمُ من الحاكم الأكبر، وعادت الحياة إلى الأهالي...

سهرت "ظزوة" على "أسْكرّايْ" في رقادِه الطويل؛ تطعِمُه ماءً محلّى بواسطة قسطرة، وتَغْسلُه من حين لآخر.
في أوَّل مرّة كشفتْ عن رأسه، ما عرفت هل تخاف منه، أمْ تخاف عليه.
وبعد أن استجمعتْ جرأتَهاَ، قامتْ تفحصُ أذنيه التيْ كأذنيْ الوَشَق، ونتأيْه العظْميَيْن.
وكادتْ تتركُ ما في يدِها للذهاب إلى الشيخ سيدي "عْلي" لتخبره بما رأتْ؛ لكنَّ طيَف السيدة "يامْنة" كان هَنا.
أراكِ عرفتِ سرَّ "أسْكَرّايْ"؛ فإيّاكِ أن تُفشيه.
ارتعَبتْ، ومع ذلك وجدتْ نفسها تجيب ذلك الطيف:
حاشا أن أفشيَ الأسرار يا سيدتي "يامْنة".
تستحقين منّي هدية إذن؛ خلخالي الفضّي الذي في ذلك الصندوق.

في السنة الثانية؛ ضرب البلدةَ إعصارٌ قوّي طيّرَ البيوت القشّية، وهدّمَ البيوتَ الحجرية الرّاشية، وكنسَ الأراضي من طميها وطينها ورملها وحجارتها، غير تاركٍ سوى الجلاميد الكبيرة.
وبدل أن يكفَّ الإعصارُ عن تدميرِ البلدَة، وأن يستجيبَ لصلوات فقيهِها سيدي "أحمد بن محمد"، أسقط عليها حبالاً من الثعابين وجُلاّتٍ من الضفادع.
مرّة أخرى، طالب الأهالي شَيخ البلدة سيدي "عْليً بن عبد الله" بالتضرع إلى الربّ وإلى "أسْكرّايْ" لأجل أن يتوقّف عن الانتقام منهم.
فذهبوا إلى بيت النبيِّ مرّة ثانية، مدجّجين بالنار وبالأسلحة ومحمّلين بالمال. فقال شيخ البلدة للسيِّدة "ظزوة":
قولي لهذا "الشيء" النائم بأن يكُفَّ عن تعذيب أهله، فإمّا أن يفعل أو نقتلَه...لقد منعنا من كل شيء: الطعام، والكلام، والتجارة، والزَواج...
فوقفتْ "ظزوة" في وجه "عْلي" لتقول له:
لا علاقة ل"أسْكرّايْ" بما يحدث لنا، فاتركوه في غيبوبته يستريح، واطلبوا من الربّ أن يغفر لنا ذنوبَنا ويرحمَنا.
وفي يدِها مدْراة كسلاح؛ والكلبُ الأسودُ" أدَايْ" ينبح في وجه الشيخ.
في السَنة الَثالثة، حلّتْ على البلدة كارثة أخرى: داءٌ استحقَّ أن يُسمّى " بداء الزرقاء" أو "داء الألوان".
رأوه يظهرُ على جنبات واديهم مثل زرقة جميلة، ثم على الأراضي المجاورة له كلونٍ مختلطٍ بخضرة النبات، ثم في أعين الماشية كلون مائي يضفي عليها رونقاً لا مثيلَ له، ثم في عيون الأطفال ووجوههم وجلدهم، وفي حليب المرضعات، وعلى جلود الشيوخ والشباب، حتى بلغت الزرقة شيخ البلدة وقبطانَه...

بدايةً، استغربوا؛ ثم فرحوا بلون السماء؛ ثم توجّسوا شرّاً؛ ثم بكوا لمّا رأواْ أن داء "الألوان" شرع يختطفُ أرواحَهم بطريقة منهجية: فمن جلدُه أبيض وتحوّل إلى زرقة مات في أسبوع، ومن جلده أصفر وتحوّل إلى خضرة، مات في أسبوعين، ومن جلدُه أحمر وتحوّلَ إلى لونٍ بنفسجي، مات في شهر...

مرّة أخرى هاجموا بيتَ "أسْكَرّايْ":

إمّا أن تتوقف عن تقتيلنا أو نقتلك. قال الشيخ مُهدِّداً بسلاحه.

فتململ النبيّ في مكانه، وبحركة بطيئة، أخذ حفنة من تراب أزرق ظهر بجانبه؛ وناولها إلى الشيخ "عْلي".

يقول عليكم بِدرّ هذا التراب على كل من أصابه "داء الألوان".

فكان أن استعادت الطبيعةُ والناسُ عافيتهم.

في منتصف السنة الرابعة، تقدّم القبطان سيدي "مْبارك" إلى الشيخ سيدي "عْلي" طالباً يدَ أختِه، زوجة لابِنه "أيّوب".

فقالت لأخيها:

- إذا أرغمتني على الزواج بمن لا أحبّ، سأنتحر. فما أعارها اهتماماً:

ستتزوجين السيد "أيّوب" رغماً عنك.

في بيت القبطان "مْبارك"، دار هذا الحوار بين الأب وابنه:

لن أتزوّج امرأة لا أعرفها ولا أحبّها.

ستتزوجها رغماً عن أنفك أيُّها الغبي.

دَعْني أراها عن قُرْب وأكَلّمُها. قال الولد في شبه استسلام لإرادة أبيه.

وهي في غرفتها تُحاورُ جمالَها على مرآة يؤطّرها نُحاس أحمر موشّى بأحجار كريمة صفراء وزرقاء، دخل عليها أخوها وقبطانُه وابنه.

حينها أسقط "أيّوبُ" العُليبَة/الهدية التي من يدِه، فتدحرجَ خاتمٌ فضّيٌّ، عليه زمردة شديدة الخضرة.

يريدُ "أيّوبُ" أن يُكلِّمَك، فتصَرَّفِي معه بلياقة. قال أخوها سيدي"علي".

فتقدّمتْ "يامْنة" من الضيفين؛ حتى إذا ما صار وجهها في وجه الزوج المفترض، المنبهر بجمالها؛ قالتْ له:

لماذا ترغبُ في الزواج منّي وأنا على هذه الحال؟

فما عرف بماذا يُجيبُها وهي آية في الجمال. فقال والدُه:

لتسمح لنا السيدة "يامْنة"! ... أنتِ أخت شيخنا سيدي"عْلي" المحفوظ بقدرة الربّ، ونحن خُدّامُه، ولا أحد في البلدة أوَ في جوارها أهلُ لك.

فابتسمتْ و قالتْ:

من الحُمقِ أن نطمع في الزواج بامرأة تبدو جميلة وقد تصير دميمة مثل ضفدع.
إلى ماذا تَقصدين أيتها الحمقاء؟ قال "عْلي"
أقصدُ إلى هذا...
فجأةً، أخذتْ بثورٌ نحاسية وحمراء وصفراء وزرقاء وزمردية شديدة الخضرة، تظهر على وجهها، وعنقها، وأطرافها؛ يسيل منها سائل دَبِقٌ، وتنبعث منها رائحة شبيهة برائحة جثة متفسّخة؛ حتى صارت المرأة التي كانتْ بجمال البدر، في قبح أقبح الضفادع.
"أيّوبُ" فغر فاه، وأبوه شهق:
لا يمكنُ لنا أن نزوِّجَ فلذة كبدنا لهذه الكارثة. فقال "عْلي" بغضب:
إنّه أمْرٌ من أمور ذلك ال"أسْكَرَّايْ"؛ سأقتله.
فاستلَّ سيفَه من غمْده؛ لكنّ تذكرةً قويّة استوقفته: تذكرَ - وهو مولود جديد - أنه يرضع من امرأة سمراء اللَونَ، فجاءت امرأتان غليظتان ورجلان شديدان لينتزعوه من تلك المرأة، وهي تبكي وتصرخ: "ولدي..." فنظر بحقد طفل إلى وجه الرجل الذي لكم فم والدته، فما كان سوى الرجل الذي يعتمد عليه اليوم؛ القبطان"مْبارك". فكانت تلك التذكرة بداية لكارثة خامسة؛ كارثة "داء التذكُّر"...
في نفس الوقت، تذكَر "مْبارك" - وهو صبي في السادسة من عمره- مشهدَ والدتِه في أحد البساتين، جميلة في لباس سندسي بخطوط صفراء وحمراء، وشبشب أسوَد، والشيخ سيدي "عبد الله بن عبد الله" يداعبُ قلادتَها، فاستلَّ هو الآخر سيفَه وهجم على الشيخ "عْلي بن عبد الله" لينتهي القتال بينهما بموت "مبارك" أمام عينيْ ولده المنشغل بمتابعة مشهدٍ غريب؛ وهو في بطن أمّه؛ وأبوه يمارس عليها الجنس ويضربها.
"ظزوة" ـ هي الأخرى ـ تذكّرتْ ساعةَ قرضت الحبل السُرّي لأختها التوأم وهما في رحم أمهما، كما تذكّرت لحظة دفعتْ بقرينة لها عمرها أربع سنوات في النهر لا لشيء سوى لأنها رفضت أن تعطيها عروستها القصبية، ثم تذكّرتْ يومَ تخلّى عنها "أزكايْ" وتزوّج ب"إيطّو"، فتألّمتْ لذلك، وكأنّ ما حدث لها منذ نصف قرن من الزمن يحدث الآن. ففهمتْ أنّها ما جاءت لتعتني ب"أسْكرّايْ" إلا للتخفيف عن نفسها من عُقَدِ ذنْبٍ كثيرة...
حتى الفقيه سيدي "أحمد بن محمد" تذكّر لمّا جاء به الشيخ الأكبر إلى البلدة وهو رضيع...ليعرف بأنّه ليس ابن البلدة، وتألّم لسكوت القبيلة على هذه الحقيقة المخزية، فراح يبكي مثل طفل رضيع. كما تذكّر أنه لم يُصَلِّ للرّب مرّات عديدة، وأنّه اشتهى "إيطّو" ذات يوم، ودعا على "أزكايْ" بالموت في بئر، أو السقوط من نخلة لكي يخلو له الجوّ فيتزوّج محبوبته التي لم يجهر باسمها قط. كما تذكّر - وهو تلميذ في السادسة

- الشيخ الفاضل سيدي "موحى أو حمّو" المتوفى بلسعة أفعى جُلجُلِية؛ عندما رسم له على الرمل جدولا سحرياً قال عنه: "سيأتي يومٌ تحتاج فيه لهذا الجدول السحري لكي تعيد به الأمورَ إلى نصابها". كما رأى بعين الذاكرة، رسماً لشيء يشبه "أسْكرّايْ"، وآخرَ لشيء يشبهُ عفَريتين يطيران بأحد الأشخاص في دوّامة من الأدخنة، ومعادلة شبه رياضية من حروف ورسوم لكواكب، وأرقام تنتهي برسم لنجمة خماسية مُحاطة بكواكب: الشمس والأرض والقمر والزهرة وشهاب.

فكان أن اشتدَّ بالأهالي "داء التذكُّر"، بحيث تذكّروا أحداث ووقائع عاشها أجدادهم الأوّلون منذ ألف سنة ومنها: بركان وكسوف وخسوف وفيضان وطاعون وحرب وقحط ومجاعة...بل استبدّت بهم "الذاكرة"، فرأوا وحوشا غابرة مثل تماسيح طائرة، وثعابين لها قوائم، وخيول قزمة، ونباتات سرخس عملاقة، وأسماك تخرج من البحر لتفتك بمزروعاتهم ومواشيهم وأهلِهم، وسلاحف ضخمة استأنسوها وركبوها وحرثوا بها الأرض وحاربوا بها بسبب قدرتها على الجرْي...

حدث كلُّ هذا "التذكر المَرَضي" في خلال يومين، وفي اليوم الثالث، تذكّروا أنهم كانوا مثل الوحوش الضارية، يفتكون بطرائدهم وينهشونها بأنيابهم من دون أن يطهوها على نار. فحدث أن قال أحد الصِّبية:

- إنّني أتذكّرُ اليوم الذي اكتشف فيه جدّنا الأول النار والزجاج والحديد والفخار.

وقال آخر:

- أمّا أنا فلقد تذكّرتُ لحظة سقط فيها رجل وامرأة من السماء وهما عاريان.

الكثير من الناس تذكرَ أموراً قذرة ومشينة وقديمة وغابرة، وهم في أرحام أمّهاتهم، ورُضّعاً، وأطفالا، ولمّا كانوا مزارعين وصيّادين وشبيهين بالبشر... ثم لمّا كانوا شبه متحضّرين، ومنتظمين في قرى ومدن، وعندما عذّبوا وشرّدوا وقتلوا الرسل والأنبياء والمصلحين الدّاعين إلى السلم والخير والحب...

الحيوانات -هي الأخرى- تذكّرت ما عانته من قِبل الأهالي، فصارت تعضُّ وتنطح وتركل وتلسع وتأكل بني البشر.

حتى إذا ما أصبح اليومُ الرابع، ساعة الشروق، نسواْ كلّ ما تذكروه، واستفاقوا من "الذاكرة" على منظر بئيس من الخراب.

فخرج الشيخ "عْلي" من بيته ليرى ما آلتْ إليه بلدته؛ وشيئاً فشيئا، تجمع الأهالي في وسط البلدة لينظروا إلى الدمار الذي حلّ بأبدانهم وأرواحهم وعلاقاتهم وبيوتهم وأموالِهم في حزن...وبرغبة قوية في الانتقام.

فكان أن بكى الشيخ "عْلي" من الحقد. ورنا بعينٍ مُشتعِلة بنار الرغبة في الانتقام إلى مَنْ حولَه، وقال لهم:

لـنُنَظّفْ الطرقات من الدّماء والجثث، ووجوهنا من آثار الاقتتال فيما بيننا، وعند الغَروب سيكون لنا شأن مع ذلك الوحش النائم! فليس من مُسبِّبٍ لهذا الدمار سِواه.
والفقيه سيدي "أحمد بن محمد" يسأل نفسَه بألم:" لو كان نبيّاً حقيقيا، ما أحدَث كلّ هذا الدمار."
فامتثلت الأهالي لأمر شيخِها على الرغم من شعورها بالتعب واليأس.
أنتم جنودٌ في هذه اللحظةَ؛ والعدوّ بين ظهرانينا، فقوموا لإنقاذ أنفسكم وبلدتكم! قال الشيخ "عْلي" بنبرة حماسية.
عند الغروب، أتواْ بالمشاعل والطبول والأسلحة المختلفة، يتقدمُهم الشيخ "علي" والفقيه سيدي "أحمد بن محمد" و"أيّوبُ" بن"مبارك" المقتول و"يامْنة". حتى إذا ما أحاطوا ببيت "أسْكرّايْ"، توقّفوا عن نقر الطبول، وعن التلويح بالأسلحة، وعن الهُتاف بالانتقام والقتل، وراحوا يتناظرون فيما بينهم...
لم يفهموا ما جرى؛ ففي طرفة عين، انطفأت مشاعلهم، وعجزت أيديهم، وثقلت ألسنتهم، واشتعلتْ عيون الآلاف من القطط، وقرقرت الملايين من الجداجد حتى كادت آذانهم من صوتها تنفجر. فما إن خرج "أسْكرّايْ" من بيته، حتى صمتت الجداجد، وخفتت نيران عيون القطط، وعمَّ صمتٌ رهيبٌ وكأنه صمتُ قبر.
ماذا تريدون؟ قال "أسْكَرّايْ".
فنظر إليه "عْلي" بعينٍ صارتِ الآنَ صفراء من الكراهية، وقال:
نريدُ منك أن ترحل عن هذه البلدَة.
ولماذا؟ سأل النبيّ.
لأنّك تذمِّرها.
من يدَمّر البلدة هو أنتم أيها الناس، وليس أنا. قال النبيّ.
بل أنتَ من يدمِّرُها أيّها الوحش. قال "عْلي".
أنا لستُ وحشاً...أنا نبيّ.
وهل الأنبياء تدمّرُ أهاليها؟ سأل الفقيه.
سبق أن قلتُ أن من يدمّر البلدان هم أهاليها.
وماذا تقول في "داء التذكّر" الذي فتك بنا؛ هل من شيَم الأنبياء أن يسلطوا مثل هذا الداء الخطير على شعوبهم؟ قال الفقيه.
أراد الربُّ أن يُذكِّركم بالأمور السيئة التي اقترفتموها.
ولكنك تسبّبت في موت الأطفال الأبرياء والحيوان... قال الفقيه.
حاشا أن أتسبّب في قتل إنسان.
إن ترحل عنّا نعطيك ما تريد؟ قال الشيخ "عْلي".

إن أرحل فلا بدّ لي من أخذ هذه معي. (مُشيراً إلى "يامْنة").
فصاح الجميع:" هذا غير ممكن؛ ف"يامْنة" ستكون زوجة سيدي "أيّوب".
فحدثت جلبة وصراخ، ولوّحوا بأسلحتهم، وحثّوا زعيمهم على عدم الامتثال لطلب "المسيخ"، فقال الزعيم من حيث لم يَتوقّعواْ ذلك:
خذها وانصرف إلى غير رجعة!

في اليوم التالي، عادت الأمور إلى عادتِها، ورأى الأهالي أهاليهم الذين اعتقدوا أنّهم دفنوهم بالأمس، أحياءً يُرزقون، والمبانيَ المهدّمة، عادت إلى صورتها الأولى، ومن سبق أن رأوْه مأكولاً رأوه يأكلُ لكيْ يعيش، والوجوه المخدوشة بأظافر الإخوة، استعادتْ نظارتَها، وكلُّ أمرٍ عادَ إلى نِصابِه؛ وكأن "كارثة التذكّر" لم تكنْ.

لمْ يختف "أسْكرّايْ" و"يامْنة" بسبب نقلة من مكان إلى آخر، ولا بسبب غشاوة غطّتْ أبصار الأهالي، ولا بسبب تحولِهما إلى كائنات مجهرية، وإنّما بسبب ثنية أحدثها "أسْكرّايْ" في الزمان بفعلِ أصْواتٍ لا مسموعة انبعثتْ من النتأيْن العظمييْن الذين خلف أذنيْه.
كانا هنا في الثنية الزمانية أمام أنظار الأهالي، ولم يكن في مقدور هولاء أن يروْهما.
بيد أنّهما سمعا ورأيا كلَّ ما قاله وفعله الأهالي من خلال ثقبٍ في تلك الثنية الوجودية.
في الانعطاف الزماني؛ لا وجود للأشياء. العالمُ فيه شبيهٌ بخلاء صوتي لا مرجعيات فيه، عدا نوع من الرياح الضوئية الباردة.
عندما شاهدَتْ "يامْنة" نفسَها فيما بين الصوت والضوء والبرودة؛ اندسّتْ في صدر "أسْكرّايْ" وضمّتْه بقوّة.
ولمّا أرادتْ إخبارَه بمشاعر الخوف التي انتابتْها، رأتْ كلامَها يخرجُ من فمِها مثل نثار ضوء جليدي.
بين الدهشة والسؤال، قرّر الأهالي التخلّي عن أمر "أسْكرّايْ" و"يامْنة"، لاعتقادهم بأنّ ما يجْري قد يكونُ لا يجْري؛ وبأنَّ التضحية بحلم السعادة المفترضة، أفضل من العيش في كابوس الواقع؛ وأنّ الروحَ لمّا تطلبُ النجاةَ، لا بُدَّ أن يُقام لنجدتها وإن اقتضى أمرُ التضحية بأغلى ما عند الأهالي من أهل ومال.
باستثناء سيدي "مْبارك" الذي قال:
لستُ أعلم، ولكنَّ شيئاً مّا يخبرني بأنَّ "أسْكرّايْ" و"يامْنة" ما زالا هنا، في مكان مّا، ما بين الخلف والأمام، ما بين الأمس والغد، ما بين الهُنا والهُناك...
وعندما سألهُ " أيّوب" عن معنى كلامِه، قال:

إذا كان هنالك من مكان يلجأ له ذلك الوحش فهو البحر؛ لذا علينا أن نترصّده في الطريق المؤديّة إلى المحيط.
فاستنفرَ عشرة مقاتلين بخيولهم وأسلحتهم إلى المنحدر المؤدّي إلى قرية الصيادين، ليكمُنواْ في مُنحدر، والنبالُ والرصاصُ على أُهبة الانطلاق.
***
آتيا في الظلام، عبر فجّ ضيّق؛ فما إن تجلّى لهم "أسْكَرّايْ"، حتى أطلقواْ عليه الرصاصُ والسِّهامُ؛ فسقط مغمى عليه، وجاء سيدي "مْبارك" ورجالُه في ضوء قمر باهت، ليجرّوا "يامْنَة" إلى البلدة، تاركين "أسْكرّايْ" إلى الموت.

في هذه المرّة، لم تسعفِ القططُ و الجداجدُ النبيَّ؛ وكأنَّ النبوّةَ رهينة بمكان وزمان معيَّنين.
"هل مات النبيّ لتنتهيَ قصّة فتبدأ أخرى؟" قالت "يامْنة" في نفسها.

أطلَّ سيدي "مْبارك" على البلدة يردفُ على جواده، "يامْنة الهاربة"؛ والأهالي، يتوسطهم أخوها الشيخ "عْلي"، بالطبول والدفوف والرقص؛ ومَنْ يخرج النار من فمه، ومن يلتهم السيوف، ومن تقطعُ رأسُها بسيف ثمّ تلعبُ به، ومن يتلوّى كأفعى فما تعرف رأسه من ذيله، ومن يقفز عالياً في السماء كما ضفدع ليسقط على أربع مثل قط، ومن تزغرد مثل جدجد...
أتيتَ بهذه الهاربة. قال سيدي "مْبارك".
ـ هي لك الآن! قال سيدي "عْلي".
في صباح اليوم الثالث من استرجاع "يامْنة"، أتى سيدي "مْبارك" بعدّة فرق غنائية، ومنها فرقة گناوة الضاربة على الطبول والعازفة على آلة يُسمّونها "الهجهوج"، وكلهم سُودٌ من حفدة الصحابي سيدنا "بلال"، وب"شيخة" سوداء جميلة اسمُها "ياقوت"، مع عازف على آلة المندولينة منَ مدينة صفرو، وفرقة شيخات ضاربة على الدفوف والكمنجة من بلاد الشاوية.
احتفالا بانتصاره على "أسْكرّايْ" الذي أرهبَ المدينة بخوارقه، وبنجاحه في استرداد "يامْنة" إلى أهلها، إلى ولده "أيّوب"، وبتحسُّن مكانته لدى الشيخ سيدي "عْلي".
سيتمُّ زواج "يامْنَة" ب"أيّوبَ" في نهاية الأسبوع. قال الشيخ.
ـ لن يتمَّ ذلك." قالت "يامْنة".

لمْ ينزّ جسدُ "أسْكرّايْ" دماً أحمر قانياً كما هو مفترضٌ، وإنّما سال من جراحِه سائلٌ أمغر أحمر في مثل لون بعض الطحالب البحرية، برائحة يودٍ قويّة.

فجاءت آلافٌ من سلطعونات البحر في ذلك الليل، لتجرّ النبيَّ "أسكرّايْ" إلى مكان وعْرٍ خفي، مطلٍّ على الشاطئ البحري.
ثم شرعتْ تستخرجُ الرصاص والحديد من جسده بدقّة طبيب خبير، وترتقُ جراحه بخيوط من ديدان طويلة دقيقة، وتستخر من البحر طحالب غابرة لتضمدها، ثم تكوّمتْ على النبيّ فيما يشبه قبراً سَلْطَعونياً، لأسبوعين كامِلينْ.

في فجر الأسبوع الثالث، استفاق "أسْكرّايْ" من غيبوبته. فوجدَ نفسَه في كهف معلّق قلَّ أن يصل إليه بنو البشر، وبجانبه طحالب حمراء شهية شبيهة بلحم البقر، وصدفات كبيرة مثل أطباق، وعليها سمكٌ مختلفٌ مع الكثير من طحلب خس البحر، وفواكه الجمبري الملكي، وقواقع كوبية الشكل مفعمة ببيض سمك أبي سيف النادر، وبجنبها سمك خبز البحر، شهيّاً بمنظره البنيّ المحمّص...
قبل أن يتناول النبيُّ وجبتَه المتأخَّرة، تحسَّسَ أماكن الجراح في جسده، فوجدها قد التأمَتْ وكأنّه لم يتعرّض لعدوان.
حاول النهوض، لكنه لم يقدِرْ، ثم استسلم للأكل. "لكلّ ما يوجدُ في البرّ نظيرٌ في المحيط - قال لنفسه - فها هوَ اللحم، وها هي السلَطة، وها هي الفواكه، وها هو الخبز... و لكن، ليس في المحيط على شساعته،امرأة مثل "يامْنة".
(لا مثيل لمعشوقتي "يامْنة" في الوجود) كان يودُّ أن يقول؛ لذا أشاح بوجهه عن الأكل، وأصاخ بسمعه إلى جهة بلدته، فسمعهم يستعدّون لتزويج "يامْنة" ب"أيّوب".

رآها؛ في غرفة، مثقلة بالأثواب الجميلة والحلي، والتعاسة.
الغرفة موصدة عليها ومحروسة برجلين غليظين، والهرجُ مالِئُ المكانَ، والعريس المفترض في لباسٍ مزركش جميل، بخنجر فضّي يتدلّى من جنبه، يتأهّبُ للدخول عليها في ذلك الفجر، والشيخ سيدي "عْلي" وقبطانُه سيدي "مْبارك" ضاحِكَيْن فَرِحَين، والفقيه سيدي "أحمد بن محمد" وجِلاً يتوقّعُ حدوث كارثة.
مرّة أخرى، أتواْ بذلك الرسام "عبد العزيز"، فجلس على تُكأة من صوف، ووضع على طاولة صغيرة مختلف الأصباغ المعدنية و النباتية، ليؤرّخ للحدث برسوم جميلة.
رسم "عبد العزيز" في ذلك الفجر أربع لوحات: الأولى للشيخ سيدي "عْلي" واقفاً في أبّهة، ومعه سيدي "مْبارك" شاهراً سيفَه جهتَه؛ والثانية، للزوج المفترض وهو على أهبة اقتحام باب غرفة "يامْنة"؛ والثالثة، لعموم الحاضرين المفعمين بفرحة الزفاف، والأخيرة خصّصها ل"يامنْة" كما تخيّلها: في ثوب حرير أخضر مطرّزٍ بخيوط ذهبية، وفي أطرافها دماليجُ وخلاخل وقلادات فضية عليها فصوص الزمرّد الأخضر والمرجان الأحمر، وهي على جنبها، على صوفا سندسية.

***
لمّا همَّ بمدِّ يده إليها، رآها تتبدّد مثل صورة مشوّشة، ثم اختفتْ أمام عينيه.
فخرج إلى أهله ليخبرهم بما رأى. فصرخ الشيخ سيدي "عْلي":
هذا الأمر - أيضًا- من فعل تلك الحشرة "أسْكرّايْ" وقال سيدي "مْبارك":
" أسْكرّايْ" مات، ولا يمكن له أن يفعل بنا هذا. وقال الفقيه سيدي "أحمد بن محمد":
بعض الأنبياء لا يموتون، وحتّى إذا ما ماتواْ، تبقى أطيافُهم حيّاً ساهرة على النبوّة، ومنتقمة ممَن كفرواْ بهم.
وصاحتْ "ظَزوة":
أشهدُ أن " أسكرّايْ" نبيٌّ من أنبياء الرّب.

ساعة المغرب، خرج "أسْكرّايْ" إلى البحر ليلتقط بعضاً من هوائه المفعم برائحة اليودْ، ومن سمكه لأجل العشاء.
وهو في منتصف الماء، تقدّم منه رجلٌ بخطىً وئيدة؛ وكأنّه آتٍ للتجسُّس عليه، فعرفَه من دقّات قلبه المتسرِّعة والصاخبة بفعل الألم، فالتفت إليه:
السيد "أُموسى"؟
فردّ الرجل:
ماذا تفعل هنا يا "أسْكرّايْ"؟
القصّة طويلة... قل لي؛ هل أنتَ غاضبٌ من أخيك؟
لا!
"أرى" في يدك شبكة صيد.
هذه وسيلة أسترزق البحر.
إذا كُنتَ تريدُ السمك، فاذهب إلى الجهة الشمالية من المحيط غيرَ بعيد عن الشاطئ الصخري، وارمِ بشبكتك؛! فإنّي رأيتُ سرباً من سمك القرقور.
سأفعلُ؛ لكن هل لديك بيتٌ؟
وجدتُ كهفاً أختبئُ فيه.
أ ترى ذلك البيت المتواضع المطلّ على البحر، إنّه لي، ولك فيه غرفة إذا أردت.
سألتحق بك بعد حين... أنا في انتظار شخص عزيز.
لمْ يقدر "أُموسى" أن يسألَ "أسْكرّايْ" عن الشخص المنتظر؛ إذ رأى عينيه السوداوين "تنظران" إلى الأفق البحري بكثير من الأسى والألم.

بين موجة مقبلة وأخرى مدبرة؛ تجلّتْ "يامْنة" مثل عروس بحرية، لكن بلباس عروس برّيةٍّ، وبساقين في مثل بياض الشمع.

رأتْهُ واقفاً في العشق، فأقبلتْ عليه سابحة على موجة عالية، وأغرقته بالعناق والقُبل...فعلتْ ذلك في ثانية، في دقيقة، في شهر وساعة، من دون أن تدري أنّها لم تشرب أو تأكل أو تنمْ كلَّ هذه المدة.
كان عناقاً وتقبيلا خارجاً عن حدود الزَّمَان والمكان، وبسبب خروج ذلك الحدث عن الوقتِ والحيّز، زاد دوامه سنة أخرى.
لا! لمْ ينصرفْ يومٌ أوْ شهرٌ أوْ سنة؛ كلّ ما في الأمر، أن القبلة التي شدّتْ بها "يامْنة" نفَسَ "أسْكرّايْ" لدقيقة من عُمُر المحيط؛ جعلتْ من الوقت شيئاً هُلامياً شبيهاً بسمك قنديل البحر؛ شيئاً رخوياً يتمددُ في هذا الاتجاه من الوقت وفي ذاك...
طبيعيٌّ أن يختلطَ الزمان بالمكان في سحر ذلك اللقاء في مياه المحيط الأطلسي!
طبيعيٌّ أن يختلط التاريخ بالأسطورة، والواقع بالخرافة، والعلم بالمعجزات... لأن العشق لا يحتملِ تعدُّدَ الوجود.
لا! لم ينصرف أيُّ فتاتٍ من الوقت؛ كلُّ شيءٍ حدث في طرفة عين الخرافة.
بل مرّتْ ساعتان من جسد الوقت؛ اصطاد سيدي "أموسى" خلالها، الكثير من سمك القرقور الفضّي المسطور بخطٍ أصفر، ووضعه في سلال وتصعّدَ الصخرَ إلى بيته، وانتظر أن يجيء "أسْكرّايْ".
ـ العشقُ أبْلغُ من النبوّة! قال النبيُّ.
لا أفهم ما تقول. قالت "يامْنة".
وتصعّدا الصخور إلى البيت أخيها.
أهلا بك في بيتِ أخيك "أوموسى" قال هذا الأخير.
وأضاف:
علمتُ أنّ أخي سيدي "عْلي" أذاقكِ و"أسْكَرّايْ" العذاب. فما ردّتْ عليه، وإنّما قبّلَتْ يدَه في احترام.
اليوم سنتعشى على سمك القرقور المشوي على نار الحطب. قال "أُموسى".
لا أكلَ أفضلَ من السمك! ولكننّي أفضّلُ تناولَ بعض الأعشاب... خليطاً من الأعشاب البرّية والبحرية، فهي للبشر الطعامُ الذي يجعلُه يكتسبُ إنسانيته. قال النبيّ.
فما إن همَّ "أموسى" بالنهوض لجلب الأعشاب، حتى استجلسَه "أسْكرّايْ"
أنا من سيأتي بها.
ولكنّه الليل، وأنتَ لا تعرف المكان بعد.
لا عليك يا صديقي! لقد عرفتُ هذا المكان.
فنهض "أموسى"، وشدَّ على يديْ "اسْكرايْ" وقال:
بحقّ الربّ، من تكون؟

سأجيبك بعد عودتي، وفي انتظار ذلك، هَيِّئِ السمك! و"يامْنة" ستوقد النار... أنا في حاجة إلى سماع كلام النار في هذه الليلة الجميلة.
عندما تصاعد لَهَبُ النار، رأى "أموسى" أمْراً لا يُصدِّقُه العقل؛ "يامْنة" تشتعلُ وتنبعثُ من جسدها ألسنةٌ ناريةٌ زرقاء بنفسجية حمراء، وهيَ جالسةٌ في هدوء خلفَ الموقد.
للحظة؛ فَكر أن يقفزَ إلى دَلْوِ ماءٍ ليطفئها؛ بدل ذلك صرخ:
- انتبهي يا "يامْنة"!
فرأى الألسنة النارية تتصاغرُ من أعلى رأسِها حتّى قدميها؛ فالتفتتْ إليْه:
هل ناديْتَني يا سيدي "أموسى"؟
لم يصدّق ما سمع؛ ولقد رأى ما رأى.
أعتقدُ أنّني مريضٌ تتهيّأُ لي الأشياء.
عاد "أسْكرّايْ" وفي يديْه حزمةٌ من خَسٍّ وحَبَقِ البحر، وسَعْتَرِ وندى البر.
ثم جلسواْ إلى الطعام في ضوء ألسنة النار.
قلْ لي يا "أسْكرّايْ"! بمَ تتحدثُ هذه النار؟ قال "أوموسى".
هذه النارُ لا تقول شيئا، إنّها تغنّي...
تغنّي ماذا بحقِّ ربّك؟
تغني سعادتَها وآلامَها في نفس الوقت... النارُ ظلمها البشر كثيراً، وهي مخلوقٌ من مخلوقات الربّ، ولها رسالة: أن تُدفئَ المظلومَ، وتحرقَ المستبدَّ... النارُ جميلة؛ ولا بُدَّ للربِّ أنْ يُكافئها.
شدَّ "أموسى" بيديْه على رأسه من الحيْرة؛ وقال:
إمّا أنّني أحلم، أو أنّ الطحالب أصابتني بالجنون... كيف للنار أن تشتعل في جسد أختي "يامْنة"، وتبقى حيّة؟
الاشتعال الذي رأيْتَهُ مُتقداً في جسد "يامْنة"، ما هي إلاّ نار العشق؛ فافهم!
- فهمتُ... إنّك - بحق الربَّ - لنبيّ.

4

بعد الأحداث الرهيبة التي حلّتْ بالبلدة، اعتقدَ السيد "عْلي" بأنّ لا أحداثَ جديدةً يمكنُ أن تعكِّرَ صَفْوَ "مُلْكه". صحيحٌ أن "مُلكَه" صغيرٌ، ولَكنّهُ يجلبُ له ملذات الدنيا: الأكل الطيِّب، الشرابُ المنعَش، القيان والجواري، السكن الفاخر، العلاج الناجع، والسلطة؛ السلطة التي يقدر بواسطتها على منح الحياة أو سلبِها من دون أن يُحاسب.

السيد "عْلي" يفترضُ أنَّ "أسْكرّايْ" اكتفى بِأختِه "يامْنة" وذهب إلى غير رجعة؛ ولهذا فضّلَ أنْ يرتاح قليلا؛ فقال لقبطانه "مُبارك":

سنسهر الليلة فوق سطح منزلي، أنا وأنتَ والفقيه؛ فتدبّرْ لنا أسبابَ سهرة جميلة!

فردَّ "مبارك":

سمعاً وطاعة يا سيدي.

وكان ـ في الحقيقة ـ يفكّرُ في ذلك الوحش الذي هَرَّب "زوجة ابنه" "أيّوب".

(لا بدَّ أن أقتلَهُ وأسترجع "يامْنة" لابني)، قال في نفسه.

في الليل، تواجدَ ثلاثتُهم على سطح بيت الشيخ الشاب حول موائد من طعام وشراب، وقينة خلاسية جميلة (تيتْريتْ) تغنّي وتعزف على آلة الرَّبَاب.

لم يتكلّموا كثيراً.

في البداية، سأل السيدُ الفقيه عن الخمر؛ فأجابهُ هذا الأخير:

الخمر حرامٌ على الرعاع، وعلى من يسكر منها ويقترف المكاره؛ ونحنُ ـ يا سيدي ـ عقلاء؛ ولن نتركَ لها الفرصة لكي تلعبَ بنا.

فضحك الحاكمُ الصغير، وقال:

وما رأيُك في "تيتْريتْ"؟ فردَّ الفقيهُ:

إنّها مثل شيء يجلبُ للسيِّد قدراً كبيراً من السعادة.

ولكنني لا أراها مثل شيء ـ قال السيد ـ أنا أراها مثل امرأة فاتنة بين ثلاثة رجال يطمعون في قضمِها كما لو كانت تفاحة.

فتدخّل القبطان "مُبارك" قائلا بنوع من الغضب:
أنا لا أهتم لهذه الجارية. فردَّ عليه "عْلي":
ولماذا تقولُها بعصبية؛ نحن نمزح يا صاحبي. وقال الفقيه:
ما يعجبني في هذه المرأة الفاتنة هو صوتُها... إنّه عذبٌ وفيه شيء من الألم اللذيذ.
أحياناً أسألُ نفسي"هل أنتَ فقيهٌ أم شاعر؟" قال "عْلي".
أنا كما تريدُني أن أكون يا سيِّدي. ردَّ سيدي "أحمد بن محمد".

لحظةَ شرعت القينةُ "تتْريتْ" تجَرّحُ وثر الرِّباب بالقوس؛ وقبل أن تطلقَ العنان لصوتها بالغَناء؛ استوقفها "عْلي"، ونهض، وقال لأصحابِه:
أ لمْ تلَاحظواْ شيئاً؟
ماذا علينا ملاحظتُه أيُّها الحاكم؟ سأل القبطان.
أ لا ترون أن محيطَنا ساكنٌ أكثرَ مِمّا يجب؟... أنا لا أسمعُ لا صفيرَ جداجد، ولا نقيقَ ضفادع، ولا نباح كلاب...
فأصاخواْ السمعَ، وما سمعواْ صوتاً يُذكر، فشعرواْ وكأنّهم في خلاء ما فيه كائن حيّ... مثل قبر شاسع مفتوح على خواء.
فتناظروا في صمت أشعرهم بخوف عائم، فهمس "الفقيه":
هذا أمرٌ غير معقول.
فصرخ "عْلي":
ولماذا تهمس؟... نحن لا نخاف من ذلك الشيء الذي يسمّونه "أسْكرايْ"؛ وإن كان ما نحن فيه من مَكره أو سْحرِه، أقسمُ أنني لن أدّخرَ جهدا لأجل قتله، وإراحة البلاد منه.
فأطلَّ على ساحة قصره:
أيها الحرّاس! اضربواْ الكلاب والحمير، واستنفروا الخيل، واستفزوا أعشاش الدجاج، وارشقوا بالحجارة أيَّ حيوان تبصرونه! أريد أن يمتلئ قصري بالضجيج.
فقال "مبارك":
إنها ضربةٌ أخرى من ذلك الوحش.
سأقتلُه...
لديَّ خُطّة. قال القبطان.
قلها فيما بعد... أريدُ أن أسمع صراخ الحيوان، وضجيجه.
ما كان ليسمع أدنى صوت منها. كان الحرّاسُ نشطين في تنفيذ أمر سيِّدِهم بالكثير من العنف والحقد، وكانت الحيواناتُ صامتةً وكأنها صمّاء لا تسمع، أو مبنجَة لا تحس: الكلابُ تكسرُ ظهرَها وتذهبُ بعيدا؛ الحميرُ ترخي آذانَها وتمكثُ في مكانها وكأنّها غائبة؛ الخيلُ تتعالى على الظلم وتشرع تبكي في صمت، الدجاجُ يتشتتُ هنا وهناك

في الظلام، وباقي الحيوانات تزحف، تركض، تطير، وتختفي من دون أن تُصدر ولو أنّة...
أمّا الحراس فما زالوا صُياحَ وشتائم سيّدِهم:
هل سمعتموها تصرخ؟...
فتجمدّوا في مكانهم، وتناظرواْ مستغربين؛ فقال قائدُهم:
هذا صحيح يا سيّدي... إنها لا تتكلّم.
أعرف أنها لا تتكلّم أيّها البليد. هل صرخت من الخوف والألم؟
لا يا سيّدي؛ إنها لم تصرخ مع أننا ضربناها بقسوة.
هذا ما كنتُ أخشاه. قال "عْلي" لصاحبيْه.
فصاح قائد الحراس:
هل نستمر في ضربها؟
عودوا إلى مراكزكم، والتزموا الصمت، وإذا سمع أحدُكم بهيمةً أو حيواناً يصدر صوتاً، فأخبروني على الفور!
إنها كارثة ـ قال السيد ـ ... أ لا ترون بأنّها كارثة؟
إنها كارثة بالفعل ـ قال القبطان ـ كيف لنا أن نعرف قدوم الغريب إذا لم تنبح الكلاب، وكيف لنا أن نرهب العدو إلا بصهيل الخيول، وحتى الدجاج نعرف من قوقأتِه تحليقَ حدأة أو انسلال ثعلب أو أنّه سيبيض...
كفى! قل لي ما هي خطّتُك يا "مْبارك"؟
سنختار من رجالنا أشدَّهم قتالية وخِفّةً وسنرسلُهم لقتل ذلك الوحش.
ولكن، سبق أن جرّبتَ ذلك وفشلتَ.
كان الوحشُ قد فاجأنا بسحره، وأنا أفكر في إرسال أحد رجالي متخفيّاً في صورة صياد ليعيش بجانبه، ويرصد حركاته وسكناته، ويخبرنا بها؛ إلى أن تسنح الفرصة فننقض عليه.
قال الفقيه:
هذه حيلة لن تنطليَ على "أسْكرّايْ"، أ ما رأيتم أنّه ـ حتى وهو في نومِه ـ استطاع أن يجلب لنا الكوارث؟... أعتقد أنّه يتوفّر على موهبة التنبؤ القريب...
ما هذه الموهبة؟ سأل "عْلي".
يقول إنّه نبيّ، والأنبياء يعلمون بعض الأمور التي ستأتي بعد أيام أو أشهر أو سنوات... أضن أن "أسْكرّايْ" يعرف الأمور قبل حدوثها بوقت قليل، ولهذا يقدر على الإفلات من خططنا.
هل هو نبي؟... أريد أن أعرف.

على الرغم من معجزاته، لا أعتقد أنّه كذلك.
معجزات... معجزات... أنا لا أومنُ بهذه الخرافات... كل ما في الأمر هو أن ذلك الوحش أعطتهُ الطبيعةُ بعضَ القدرات... ومع ذلك سأقتلُه. قال الحاكم " عْلي" بغضب.
لكن كيف لنا أن ننال منه وهو يعرف مسبقاً ما سنقوم به. قال الفقيه.
لكل إنسان نقطة ضعف. ابحثوا لي عن نقطة ضعف المسمّى "أسْكرّايْ"، ولكم منّي مكافأة عظيمة!
نقطة ضعفه هي "يامْنة"...فإذا كان هو يعرف مسبقاً خطواتنا، فإنها لا تعلم...نختطفها ونستدرجه للتفاوض في أمر استرجاعها ثم نقتله. قال القبطان.
افعل ما تشاء! - قال السيد - اختر أنسب الرجال لهذه المهمّة واستعن بالسحر! ... أ لا تفهم في السحر يا"أحمد بن محمد"؟... واستعن بالحيلة والمكر... المهم أن أراهُ قريباً من خنجري...
و إلى "تِيتْريتْ" قال:
وأنتِ؛ تعاليْ معي!

كان قمرٌ قد مال إلى الغروب، والسيد "عْلي" وجاريتُه في إحدى غرف القصر المطلّة على غابات الأركان.
تعرّى السيد من سلاحه وزينته الفضية، وملابسه العسكرية، وأمر جاريته بأن تتعرى من آلتها، وأن تغنِّيَ له أغنية عاطفية. وقبل أن تفعل، مَلأَ كأسَيْنِ، فجحظتْ عيناهُ.

كان "أسْكرّايْ" و"يامْنة" جالسيْن على صخرة صُوّان أتتْ بها الأنهار إلى شاطئ المحيط، ودملكتها. وهما يرنوان إليه، تجلّى لهما حوتٌ أبيضَ فضّيٌّ في عظمة جبل؛ ولم يشهقا أو يتعجَّبا.
تجلّى الحوتُ العظيمُ واختفى، وانصرف الليلُ بسرعة البرق... في سماءٍ صامتة...في عينيْ عاشقيْن... فحلَّ الصباح.
ثم جاء "أوموسى" إليهما بقفة من سمك سلطان إبراهيم، وبلح البحر:
سيكون هذا فطورُنا.
أفرغَ الحاكمُ "عْلي" كأسَه في جوفه، وقال ل"تِيتْريتْ":
أرى أنني لا أسمعُ كأسيْنا وهما يُقرعان. فأعادَ الكرّة ولم يسمع لهما رنين.
فأمر جاريته بأن تمزق جسد الرّباب، ففعلت، وما صدر عن الربابِ صوت.
وأمرها بأن تصدح بالغناء، فحاولتْ، ولم يخرج من حلقها صوت.
فارتمتْ على سيِّدِها طلباً للنجدة؛ لاعتقادِها بأنّها أمسَتْ صمّاءَ بكماء، فدفعها بغضب لتسقطَ في هُوة سَحيقة من الرعب. وخرجَ يصرخ في وجه كلّ من يصادف من خدمِه

ورجاله ونسائه، ولا أحد من هولاء يبدو عليه أنّه يسمعْه. كان يمسكُ بالواحدِ منهم ويصفَعهُ، فلا يسمعُ؛ لا صدى الصفع، ولا عويل المصفوع.
جيئوني ب"أسْكرّايْ"! كان يصرخ بأعلى صوته، ومع ذلك كان يشعر بأنّه في أحدٍ من تلك الكوابيس التي يأتينا فيها مجرمٌ لقتلنا، أوَ غولٌ لأكلنا - ونحنُ مثل طفلٍ وحيدٍ مهجور- فنصيحُ - في كابوسنا - " أمّي!" والغولُ يقتربُ، ولا تأتي الأمّ لنجدتنا...
خرجَ الحاكمُ "عْلي" إلى فضاء البلدة، والشمسُ لمْ تبزُغْ بعد.
- "أسْكرَّايْ"! ... يا ابنَ حفّار القبور... تَجَلَّ لي وسترى كيف سأقتلُك!"

فقال "أسْكَرّايْ" ل"يامْنة":
أسمعُ أنّ بلدتَنا لم تعدْ تسمعْ، وأنَّ الأشياء فقَدتْ أصواتَها وأنا ليسَ لي يدٌ في ما يجري...
لمْ تسأله " كيف يستطيعُ السماع عبر مسافات كبيرة، وكيف تسْمَعُ له الحيواناتُ والأشياء، ولماذا الناسُ لا يسمعون له؛ ولا سألتْهُ هل نزل عليه "وحيٌ" من السماء، أم أن "الوحيَ" صعد إليه من الأرض؛ وهل ينوي كتابة "كتاب"؟
"ومن أين له أن يكتبَ كتاباً وهو أعمى؟" قالتْ في نفسِها؛ ثم شدّتْ على يدِه. ولأول مرّة في حياتِها معه، انتبهتْ إلى أنَّ يدَه مكسوّةٌ بشعرٍ متصَلِّبٍ شائك، شبيه بالشعر الذي يكسو جسَدَ جُدْجُد. فقبّلتها بحنان، ثم اندستْ في صدره كما قد تندسُّ نَبيّةٌ في جسم حوت.
كن رفيقاً بأهلك! قالت "يامْنَة"
ليرفقَ الأهلُ بأَنفُسِهِم. ردَّ "أسْكرّايْ".

صار الناس لا يتفاهمون إلا بالإشارة.
فصار لِزاماً على الذي يريد قول شيء لشخصٍ؛ أن يطرق على كتفِه ثم يحاول ما استطاع، أن يُفهِمَه ما يريدُهُ منه بالمسرح، والتمثيل.
لم يكن الأهالي مُصابين بالصمم أو البُكم، بدليل أنّهم عندما يتخطون حدودَ بلدَتِهم، كانوا يتكلّمون ويسمعون بعضهم، وأصواتَ الحيوان والأشياء. الحاكمُ "عْلي" أجرى التجربة بنفسه: رسم بسيفه خطّاً، وأصاخ بسمعه ليلتقط أصواتَ رجاله، ولم يجئْه صوتٌ؛ ثم قرعَ مُهنّدَه بغمده الفضّي، فما سمع شَيئاً؛ وعند تخطّيه وقبطانُه للخط الذي رسمَه، وتحدث إليه؛ رأى أنَّ هذا الأخير يسمعُه بوضوح، وهو الآخر سمعَه يقول:
أعتقدُ أنّ كارثة " الصمت" ضربتْ بلدتَنا من دون البلدان المجاورة، وهذا دليل على أنّها من صنيع عدوّ؛ ولا عدُوَّ لنا سوى "أسْكرّايْ". ثم أضاف:
ارسمواْ حدود "الكارثة"، وضعوا العَسَسَ ما بعدَها حتى نسمعُ قدوم الغرباء!

فانتشر الناس إلى جميع جهات البلدة لوضع علامة فاصلة على الأرض (حجراً كلْسياً أبيض) بين "جهة الصمت"، و"جهة الكلام". حتى إذا ما انتهواْ، جاء الفقيه "أحمَد بن محمد" ليربط بين العلامات بخطٍّ من مسحوق الجير. وهكذا تمَّ تحديدُ "المنطقة المنكوبة بطاعون الصمت".

والآن؟... ماذا علينا فعلُه يا سيِّدي؟ سأل الفقيه. فأجابَه الحاكمُ:

قمْ بالسحر لترفعَ عنّا لعنةَ ذلك اللعين!

فاستخرج من تحت عباءته قارورة بها سائلٌ في لون الصمغ، وصدفاتِ محّار أرجوانية، ورشَّ هذه بذاك، ثم سار على خط الحدود الفاصلة بين "منطقة الصمتِ"، و"منطقة الكلام" وهو يقرعُ الصدَفاتِ بعضها بالبعض، تارةً ذات اليمين، وتارة ذات الشِّمال؛ وهو يغمغم كلاماً غير مفهوم.

استمرّت الكارثة ستة أسابيع كان خلالها كل من يرغب في التحدّث إلى غيره، يركب حماراً (صامتاً)، و يسير حتى "منطقة الكلام"، فيكلّم صاحبَه أو جارَه أو عشيقتَه أو عبدَه.

بعض الناس رأواْ في "كارثة الصمت" نعمة، ومنهم العبيد، حيث كانوا يستأخرون تنفيذ الأوامر، ويدّعون أنّهم لا يسمعونها حتى عندما يصدرها إليهم أسيادُهم من "منطقة الكلام". ولكن حِيَلَ العبيد لا تنطلي على الأسياد؛ إذ كانوا يضربونهم بقسوة لعدم امتثالهم للأوامر، ويدّعون أنّهم لا يسمعون صراخَهم وأنينَهم.

الأطفالُ - هم الآخرون - استفادوا من "الكارثة" لمّا اكتشفواْ أن التظاهر بحفظ "الكتاب"، يَقيهم من سياط الفقيه سيدي "أحمد بن محمد"؛ الذي بدوره استغلَّ "الكارثة" ليرتاح من مهمّة التعليم، فكان - هو الآخر- يتظاهر بأنّ تلاميذه الصغار ومريديه من الفتيان، يتعلّمون جيّدا.

المشكلة كانت أكبر بالنسبة للنساء؛ حيث لزمهنَّ للممارسة النميمة، أن يقطعن مسافة غير يسيرة للخروج من "منطقة الصمت"، والبقاء خارجها زمناً أطول بسبب ما تراكم لديهن من الأسرار، والشائعات ضدّ هذا أو تلك.

ولا شكّ أن الأمهات والآباء على حدّ السواء، استبشروا خيرا في "كارثة الصمت"، بسبب ما جلبته لهم من راحة البال والأذنين، من عويل أطفالهم البكّائين، وطلبات الأولاد المزعجة خلال الليل.

لكنّ الأمر الذي فرحَ له الأزواجُ وسَعِدوا به أكثر من أيّ شيء، هو إراحة بعضهم من "كارثة الشخير".

فكانوا يبيتون في راحة ولذة، ويستفيقون مرتاحين سعداء نشطين، فيباشرون أعمالهم بحيوية لا مثيل لها لعلمهم أنّهم لن يسمعواْ شتائم أسيادهم؛ وأنهم سينامون على صدور أزواجهم في راحة بال يُحسَدُ عليها.
بسبب هذه الكارثة؛ رأى الأهالي إقبالا متزايداً من سكان البلدات المجاورة، يأتون إليها لأجل ما يمكن تسميتُه ب"سياحة الصمت" و"الاستجمام السمعي"؛ الأمر الذي زاد من النشاط الاقتصادي للبلدة، ومن سرور حاكمها السيد "عْلي".
فكُنتَ ترى "السائحين" يفترشون الزاربي، والحصائر تحت ظلال الأرگان، وينامون عليها بآذان مشرعة؛ سعداء بعدم سماع طلبات زوجاتهم؛ زوجاتهم اللواتي كُنَّ يُومِئْنَ لهم بأنّهن لا زلن في حاجة كسوة أو شبشب أو سوار أو قلادة أو مال؛ فترى الرجالَ يتصنعّون عدم فهم تمثيلهن، ويحلمون ببلدة أخرى تكونَ حلّتْ عليها "كارثة العمى".
ولكن في الليل، كنّ - هنَّ الأخريات - يتصنّعنَ أنهن غارقات في النوم عندما يشعرن بأزواجهم، وهُمْ على مشارف الانفجار من الرغبة.
إلى أن جاءتْ ليلةٌ شبيهةٌ بالليلة التي حلَّ فيها غيابُ الأصوات؛ وكان الشيخ "عْلي" يطلُّ على بلدته الصامتة في ما يُشبهُ الخشوع والسعادة، وبجانبه جاريتَه "تيتْريتْ" بآلتها الموسيقية وحيدة الوتَر (الرِّبابْ)، وغيرَ بَعيدٍ عنه، قبطانُه سيدي "مُبارك" يتناولُ حبّاتِ التّينِ المجفّف مع كأسٍ من "ماء الحياة"، ويتحادث - بالإشارة والتمثيل - مع سيديَ "أحمد بن محمد" عن أمرٍ يبدو أنّه من صميم السياسة.

رجلٌ غريبٌ مُكْتَلٌّ أعْمشَ اسمُهُ "باسّو"، ادّعى أنّه من بلدة بعيدة عن بلدة "أسْكَرَّايْ"، وهو في الحقيقة ذلك الرجل الذي أرسلَه القبطان سيدي "مْبارك" جاسوساً على "أسْكرّايْ.
كانوا في أثناء الليل حول نار متأخِّرة يتسامرون في شؤون المحيط وخباياه.
قال "أسْكرّايْ":
أسمعُ في هذه الأثناء بقايا أصوات لسفينة غرقتْ، وعلى مثنها أناسٌ يتكلّمون لغةً غير لغتنا، وقصفَ مدافع، وانفجارات، وأصواتَ رجالٍ من قبائلنا...
فقال "أُموسى":
قرأتُ في كتابٍ أن حرباً دارت بين أجدادِنا والبرتغاليين في هذا المحيط. إن ما تسمعُه يا "أسكرّاي" حقيقة.
فقال "باسّو" بانفعال:
هُراء! لا يمكن لأيّ أحدٍ أن يسمعَ أصْواتاً مرّتْ عليه عدّة قرون.
الأمرُ ممكنٌ لبعض الناس؛ انظر؛ الأصواتُ مثل الأشياء؛ والهواء والماء والحجارة، مثل كتاب؛ وأنتَ عندما تضع شيئاً على كتابٍ، أ لا ترى بأنّه يتركُ أثراً عليه؟...أنت تتحسسُ

أثر الشيءِ بأصابعك فتعرف حجمه ووزنه وشكله، وهذا ما يحدث معي؛ غير أنّني لا أستعمل أصابعي لقراءة الآثار، إنها الرياح عندما تلامسُ أصابعُها تضاريسَ الموجودات، تأتي إلى أذنايَّ الأخبار القديمة.
لم يفهم "باسّو" كلام النبيّ؛ إذ قال:
أنا لا أصدّقك! أنتَ إمّا سحّار أو دجّال.
فانتفضَ "أُموسى" من مكانه محاولا ضربَ الرجل، فاستوقفه النبيّ قائلا:
لا تفعل! هذا الرجل لا يصدّقني. هذا من حقّه، وليس من حقِّنا أن نفرض التصديقَ على الناس، وتخصيصاً منهم، أولئك الذين يجيئونا بغرض التجسس.
شَرقَ "باسّو"، وأحَّ حتى كاد يختنق، فقال "أسْكَرّايْ":
منذ جئتنا وأنا أعلمُ أنك ما جئتَ إلاّ لتسهيل عملية قتلي، ومع ذلك استلطفتُك زهاءَ شهر، وما فكرتُ لحظة في إيذائك... قل! أ ليسَ القبطانُ "مبارك" هو من أرسلك؟
تلعثم الرجل، ثم خرَّ على ركبتيه:
سمعتُ أنّك تدّعي النبوّة وما صدّقت، وطالبوني بالتجسس عليك ففعلتُ، وأنتَ كنتَ تعلم من أنا وما قتلتني... أشهدُ أنّك نبيٌّ، وأطلبُ منك أن تغفر لي، ومنذ اللحظة سأكون في خدمتك حتى الموت.

بالإشارة؛ قال سيدي "عْلي" لجاريته: "قبّليني"؛ فجاءتْ إليه بفَمٍ حُلوٍ؛ وطبعتْ على فمه كلمة "أحبّك"؛ فكانتْ تلك، أول كَلمة يُرفع بها الحصارُ عن الأَصوات.
لقدَ سمع بوضوح كلمة "أحبّك" التي نطقها فَمُ "تيتْريتْ"؛ فَمُ "العشْق المَنْسي" على فَمه، فأمرها بأن تُعيدَها وتُعيدَها حتى يقتنع بأن الأصوات عادتْ إلى الأشياء والناس...
لحظتئذ، اختفى صاحباهُ من وجوده، وشعر وكأنَّهُ يسمعُ موسيقى آتية من بلدٍ بعيدٍ؛ لأجلِ أن تحدّثه عنْ الجَمَالِ الذي يملأ القلبَ، عندما يفرغُ القلبُ من الحقد والغضب.
ترديد "تيتْريتْ" لكلمة "أحبّك" بالغناء والموسيقى، غنجُها الخلاسي، عودةُ الأصوات من فَمها العذب، عَنَى له الاقترابَ من ضُعْفٍ سياسي خطير. فلمْ يشعر إلاّ وهو يبعِدُهَا عنه، ويقول لصاحبيْه:
السياسيُّ لا يعشق... وإن فعلَ، فتلكَ بداية زوال سلطته!
ولمْ يجُرَّها إلى سريرٍ كما يُفترضُ، وهو كَمَثلِ قشّة تتقاذفُها أمواجُ العشق، بل شَهَرَ سيفَهُ وصاح:
أنْ أعشقَ مثل هذه المرأة لسببٍ أجهلُه، مكيدةٌ أخرى من مكائدِ ذلك اللعين!

فاستنفرَ رجالَه للخروج إلى البلدة، والنظر في أحوالِها، فكان أن رأواْ السائحين يُجمّعون أمتعتَهم ويغادرونها في صخب لا يُطاق... مَا عادَ ما يستبقيهم في بلدة كان "الصمتُ" أجملَ ما فيها.

ولا أنتَ كنتَ قادراً على البقاء في بلدة أصبحتْ تضجُّ بطلبات الأزواج والأطفال وأصوات الحيوانات المكبوتة، وصراخ الأسياد وشتائمهم وأوامرهم الجائرة...

ولكنّ أخطر، أصواتُ الحمير. ذلك لأنّها - زيّادة على سعادتِها بالتحرّر من "قهر الصمت" - بادرتْ إلى النهيق المفرط ، تعويضاً عن حرمانِه مِنه لعدّة أشهر.

النساءُ تذمّرن من عودة الأصوات لكونهن اعتبرن أن النميمة المطبوخة على نار الانتظار، أكثر لذة من النميمة الفورية.

والأبناءُ المزعجون والحاسدون، فرحواْ باستعادتهم القدرة على تنكيد ليالي أبائهم.

سيدي "أحمد بن محمد" نفسُه، أزعجته عودةُ الأصوات إلى أشيائها، لاستحْلائه "التعليم المبني على الكسل"، إذ صار لِزاماً عليه أن "ينَهق" لأجل أَن يمتثلَ تلاميذهُ ومريدوه لأوامره.

"الصممُ والبكمُ نعمة لا نظير لها" قال الفقيه في نفسه بتأسّف.

ثم جاءَ "أيّوبْ" لأبيه سيدي "مْباركْ" بعد صمتٍ طويل، وقال له وهو يبكي من الشوق: أريدُها... تلك الهاربة.

فردَّ عليه بنوعٍ من التذمُّر:

إذا كنتَ تريدُها، فعليكَ أن تقاتل من أجلِها!

ليسَ له خاطرٌ لكيْ يطيِّبَ خاطرَ ابنه المَحموم بنار العشق، فلقد أتاهُ خبرُ انكشاف خطّته الرامية إلى اغتيال "أسْكَرّايْ"، وخيانةِ "باسّو" له.

فذهبَ إلى سيّده ليقول:

لقد فشلت الخطّة، وأنا أستأذنكَ الاعتكافَ في بيت سيدي "ربّي بن عمرانْ"، لأجل أن أستريحَ مَن "الصمت"، ومن"الكلام"، ولأجل أن أستلهمَ وحشةَ ذلك المكان، لعلّهُ يُلهمَني خطّةً نوقف بها كوارث "أسْكرّايْ".

استقبلَهُ في غرفة الاجتماعات في فوضى قناني الشراب، وكان يستمعُ إليه بنوع من الإحباط. كان يشربُ بيدٍ، واليدُ الأخرى يمرّرُها على حدّ سيفه؛ ولم يشعُرْ بخيطِ دمٍ يسيلُ من أصابعه، ولمْ يشعُر عندما شرعَ يلحسُها. كان يفكّرُ في الرواج الاقتصادي، والسمعة "الطيِّبَة" التي جلبها "وباء الصمت" لبلدته. وفكّر في استفزاز "أسْكَرّايْ" بأيّ طريقة لكيْ يستنفر هذا الأخيرُ القوى الخفيةَ التَابعة له، ويسخرها ل"كارثة سمعية أو بصرية أو حركية" فيها منافع له ولبلدته.

ـ كم أنا غبيّ! لماذا لا أتصالحُ مع ذلك الرجل؟ إنّه صهري بشكلٍ مّا... إن تصالحتُ معه، سيزدادُ سُلطاني وسيكون بإمكاني أن أسخِّرَ كوارثه لمصلحتي... قدْ أصيرُ ملكاً... أجل! يمكن أن أُصْبحَ مَلكًا على الشمال والجنوب... يكفي أن أهزمَ البرتغاليين... تكفيني "كارثة نارية"؛ نيازَكُ ملتهبةٌ لأغرق سُفنَهم... لكنني سأحتاجُ إلى "كارثة مالية" تضربُ أعيان البلاد، فتفقرهم، فيأتون خاضعين إليَّ لأجل اقتراض المال؛ عندها، سأفرضُ عليهم شروط الولاء والطاعة...كم أنا غبيّ! ف"أسْكَرّايْ" الذي جعلتُ منه عدوّاً، ليسَ إلاّ وسيلةً أرسلها لي الربُّ لكيْ أُسيطر بها على العالم...

ما هو جوابُك يا سيّدي؟ قال "مبارك".

انتبهَ السيّدُ إلى أنّه لم ينتبهْ لطلب خادمه.

ثم دخلتْ "تيتْريتْ" مثل أميرة في لباسٍ بنفسجي يتوسّطُهُ نطاقٌ ذهبي، وعلى رأسها المُعتنى به، ما يُشبهُ تاجاً ذهبياً، وفي رجليها خُفّين أصفرين مطرّزين بخيوط الذهب.

كانت المرأة الخُلاسية هنا مثل زوجة للحاكم. هذا أمرٌ مفهوم؛ وهو لا يرغب إلا في أن يأذن له سيدُه لأجلَ أن يجدَ طريقة مّا للنيل من "أسْكرّايْ".

افعل ما تراه مناسبا! قال الحاكم. فانصرف المحكوم.

قال "باسّو":

أنا جاهلٌ يا سيّدي، ولكنّ لي سؤال...

من يطرحُ الأسئلة، يصيرُ عالماً؛ فاطرح سؤالَكَ أيُّها الرجلُ!

هل نزل عليك ملاكٌ وأعطاك رسالة لتخرجَ بها إلى الناس؟

أنا لمْ أرَ ملاكاً في حياتي، وليستْ لي رسالة.

وسألته "يامْنة":

لماذا لم تكُنِ النبوّةُ من نصيب النساء؟

لو أن النساء حملن السلاح، وخرجن للصيد والحرب؛ لو أنّهن تصعّدن الجبال، وركبن البحار، واجتزن الصحاريَ، وعشن في الكهوف الموحشة، وصارَعْن السِّباع، وهاجرْن لجلبِ العلم والمال، وقتلن لأجلِ السلطان،... لو فعلن مثل هذه الأمور، لجاز للنبوة أن تكونَ فيهن؛ ولكنّك ترينهن منكفئات على أنفسهن أيّاماً في كل شهر، مثقلات بالحمل، غارقات في الإرضاع، قابعات في الجهالة، مكتفيات بأعمال بسيطة، ساجنات أنفسهن في الدار خلف كانون أو حوض تصبين أو آلة نسج، خاضعات لأزواجهن، غير ثائرات على ما تعانينه من ظروف مزرية...

فقالت " يامْنة":

ولكنّني قرأتُ في أحد الكتب عن وجود بلد تحكمُه النساء، وفيهنّ الملكة والحاكمات وقائدات الجيش، ولا أثر في مجتمعهن للرجال، سوى ما يدّخرن منهم للإنجاب.

فقال النبيّ:
من المؤكّد أن فيهن نبيّات.

بعد أسبوع جاء السيد "مبارك"، وقال لسيّده "عْلي":
ادعُ الناس إلى الاعتراف بذنوبهم، ليدوّنها فقيهُنا في كتاب، حتى إذا ما انتهى، تقوم أنتَ، تغفرُ للجميع، وهكذا نسحبُ البساطَ من تحت "أسْكرّايْ".
وقال الفقيه سيدي "أحمد بن محمد":
هناك مشكلة...
ما هي؟ سأل الحاكم.
المشكلة هي أنّه يتعيَّن عليك ـ أنتَ أيضا ـ التصريح بذنوبك...
سأفعل! قال الحاكم بعصبية.
فكان صفٌّ من الناس بطول فرسخين. جُمّعوا أمامَ بيت الحاكم سيدي "عْلي" للاعتراف بخطاياهم. والفقيه سيدي "أحمد بن محمد" جالسٌ على جذع شجرة أرْگانْ، خلف طاولة من شجر الآبنوس، وكتاب.
فتقدّم أول "المخطئين" فقال:
أذكر أنني ذات ليلة ظلماء، أفرطتُ في الشرب، فأخرجتُ سيفي هذا وضربتُ به عنق وطواط في السماء، وليس له من ذنب سوى أنّه عكّر صفْوَ ليلتيَ. وأنا الآن - أمامَكم - أعترفُ بهذا الذنب، وأدعوكُم إلى الاعتراف بذنوبك؛ جميعِ ذنوبِكُم؛ وقاية من الشرور والكوارث التي تحلُّ علينا. وبهذه المناسبة، أخبركُم أنّني غفرتُ لخادمنا وابن بلدتنا "أسْكرّايْ"، كما غفرتُ لأختنا "يامْنة"، وسمحنا لهما بالعيْش بيننا مَعُزّزَيْنِ مُكرّمَيْن؛ وهذا أخوكُمْ القبطانُ "مْبارْكْ"، يُباركُ هذا القرار الحكيم، وابنُهُ "أيّوبْ" هو الآخر يُبارك، وأنتم جميعاً تُباركون... أ ليسَ كذلك؟
فصدحت الزغاريدُ والتصفيقاتُ والدّفوفُ والطبولُ والمزامير والتهليلاتُ والأدعيةُ ب"طول عُمُر الحاكم"، والرقص والتمثيلِ، والقبطانُ سيدي "مبارك" يعضُّ على نواجِذه من فرطِ الغيظ والكراهية.
وقالَ الحاكم:
والآن، سيقفُ أمامَكمْ فقيهُنا "أحمد" للاعتراف. فوقفَ وما زالَ مِدادُ القلمِ الذي دوّنَ به أكذوبةَ سيِّده، يقطُر. قال الفقيه مجتهداً:
... لن تصدِّقَوني... ولكنّني... أنا الآخرُ أخطأتُ في حقِّكُمْ... أذكُرْ أنّني ذات مرّة... صلّيتُ بكم وأنا غير طاهر... غير أنّني لم أمارس السحر سوى عندما رأيتموني أعالج بلدَتنا من "داء الصمت"... أرجو أن تُغتفر لي...
فصاح واحدٌ:

أنتَ إنسانٌ عظيمٌ، ونحنُ نغفر لك. فتبعتهُ الدهماءُ مُردّدةً:
أنتَ إنسانٌ عظيمٌ، وإننا نغفرها لك. فردَّ:
العظمةُ للربّ، ولحاكمنا هذا، ولكم.
فكانت الزغاريد والتَصفيقاتُ...
فجاء دَورُ القبطان سيدي "مبارك":
أمّا أنا فلقد كان عمري خمس سنوات عندما سرقتُ لوالدي فِلساً أحمر. ولمْ يزدْ على ما قال كلمة.
ومن بعده جاء ولدُه "أيّوبْ" الذي أخبر القومَ بأنّه هو الآخر سبق له أن سرق من والدِه فلساً أحمر.
ثم تعاقب الأهالي على "طاولة الاعترافات"، وكان منهم من اعتدى على خالةٍ عمياء، ومن سرق مال الأيتام، ومن خان زوجته مع زوجة قريبِه، ومن شتم "السماء"، ومنهم من سرق جارَه، ومنْ غشّ في الميزان بضمير مرتاح...
اعتبر الحاكم أن "حملة الاعترافات" ستدوم ثلاثة أيّام فقط، على اعتبار أنّ البلدة التي "حدّدها الصمت" لا تتوفّر سوى على مائة وثلاثين موْقِدا. ولكنّها دامتْ ضعف ذلك أربع مرّات، ذلك لأن الأهالي اكتشفواْ سحرَ الحكيْ وسلطة الرواية ولذة رهن المستمعين لعنصر التشويق. فكان منهم من احتكره أكثر مما ينبغي للمزيد من الشعور بالسحر والسلطة واللذة، وهُمْ آمنون من أيّ عقاب، إلى أن تدخّل الحاكمُ بسيفه، وقال:
- أقسمُ بهذا؛ لأضربنَّ عنق كلّ من تسوّلُ له نفسُه احتجازنا لأجل سماع تُرّهاتِه...
اعترفواْ بذنوبكم بسرعة وانصرفوا!
ولكيْ يفهمهم الأمر، ويقتصد الوقت، قال:
... قولواْ: قتلتُ. سرقتُ. خنتُ. كذبتُ. غششتُ. حسدتُ...
ساعتئذ، جاز للإيجاز أن يُعتبرَ أحسن أسلوبٍ حكائي؛ وهذا ما جعل الحاكم يقول لشعبه:"سمعناكم وغفرنا لكم؛ فلا تعودوا إلى مثل هذه الأشياء!
5

أعلى البوابة الجنوبية لسور المدينة، عُلّقتْ تسعةُ رؤوس دامية. هي بالتأكيد لمجموعة من الثائرين أو العُصاة؛ وهناك يدٌ كتبتْ بالدّم هذه الجملة: "هذا مصيرهم"، بطريقة جعلتْ كلّ حرف من حروف هذه الجملة المرعبة، يقعُ تحت كل رأس.
الرأس "هاء" مالتْ جهة الشرق، في حين مالتِ الرأس "ميم" جهة الغرب؛ أمّا الرأس "ياء" فلقد حنت رأسَها باتجاه الأرض، والرأسَ "راء" تنظر إلى السماء بعينين متوسلتين.

والناس الخارجون من المدينة أو الداخلون إليها، لا ينظرون إلى تلك الرؤوس.
يتصرفون وكأنها غير موجودة على الرغم من أنها ما زالتْ طرية. رُبّما لا ينظرون إليها مخافة أن يتهمهم الجنديان اللذان يحرسانها بالتواطؤ أو بالتعرف على أصحابها.
في الفناء الخارجي الشاسع والمقابل للبوابة، تجمّع الناس للتجارة فيما يشبه سوقاً دائمة وهادئة من غير مشادّات كلامية أو عراك.
الناس خائفون، و"السلطة" ما انفكّتْ تعطيهم الدروس والعبر عندما يعصونها، والوضع آمنٌ على الرغم من بعض القلاقل.
وللمزيد من الأمن، أمَر القاضي "الأعرج" بإقامة ساحة للملاهي غيرَ بعيد عن السوق، بها عجلة خشبية كبيرة بصناديق يركبها الناسَ مقابلَ فلس، وأجواق من الحُواة ومروّدي القرود، وحُكاة القصص العجيبة والبهلوانيين والمهرجين وباعة الأدوية المشكوك في أمرها؛ والناس مقبلون عليها حفاةً عراةً ومجذومين وأقرعين في فرح بليدٍ مخلوطٍ بشيءٍ من السعادة الموبوءة.
بعد العصر، اشرأبّت الأعناقُ جهة البوابة. حيث خرج منها البرّاحُ الرسمي، متبوعاً بجنديين وامرأة، وهو يصيح لشدّ انتباه الناس لوجوب المشاركة في رجمها لكونها اقترفتْ جريمة الخيانة العظيمة.
وكانتْ امرأةً في الأربعين من عمرها، لكنها تبدو أكبر سنّاً بفعل حياتها الشقية، ولم يكن لها أسنان، وفي عنقها ورمٌ خبيثٌ، وترتدي ملابس رثة، ومن ورائها زوجٌ لا يبدو عليه أنّه مقتنعٌ بخيانتها له.
فصنعوا لها قُلّيزة، وجعلوها تعلوها وهي مكبّلة اليدين من الخلف، ونادى البرّاحُ في الناس بأن يختاروا أكبر ما يستطيعون حمله من حجارة، ورجم تلك المرأة البائسة.
كنتَ لتراهم يتخاطفون أكبر الحجارة وأشحذها، ويتسابقون إلى "حلبة الرجم" لرشق تلك المرأة التي شرعتْ تتبوّلُ من هولِ ما ينتظرها، ثم ما لبثتْ أن انهارتْ، فبادر إليها رجلٌ عجوزٌ مريض -على ما يبدو- ولهُ لحية بيضاء مُنهكَة، وراح يعالجها لكي تقف، ثم أسندها على عصا غليظة كان يتكئُ عليها، وعاد للانضمام إلى صفوف الراجمين.إلا أنّه لم يتناول أحجاراً كبيرةً كما دعا إلى ذلك البرّاح؛ اكتفى - فقط - بسبع حَصَوات...
كان أوّلُ حجرٍ يقعُ على جبهة تلك المنكوبة، من يدِ امرأة في مثل دمامتها وبؤسها؛ تلتْها ضربةٌ - على الأنف- من فتى مراهق حافي القدمين، صَلعَ الرأس، إلا من ضَفيرةٍ خشنة على جانبها؛ ثم جاءتْ حصاةُ الشيخ (المريض) لتفقأ عينَها، فتتابعت "عمليةُ الرجم" متسرِّعةً، حتى أن "المرأة" اختفت كليّاً تحت ما يُشبهُ قبراً من حجارة.
كنتَ لترى كيف أن البسطاء الفقراء المنكوبين في وجودهم، يُنفِّذون حكم الإعدام بحيوية ونشاط وفرح وسعادة وراحة ضمير لا مثيل لها.

وزوجُ "تلك الخائنة المفترضة"، واقفٌ ينظرُ بعين دامعة إلى ما يجري. لم يكن يبدو عليه أنّه مقتنعٌ بخيانة زوجته له؛ إذ قال لطفلٍ كان بجانبه:"أنا لم أرها تخونني؛ إنهم الآخرون من أخبر رئيس الشرطة والقاضي".
وعندما تقدّم رجلٌ ذو لحية بيضاء غير الأول، واستصبره على الكارثة التي حلّتْ به، قال له:
لا أعتقدُ أن امرأة دميمة فقيرة بائسة مثل زوجتي، يمكن لها أن تخون.
فردَّ الشيخُ بعطف:
أما رأيتَ الرؤوس المعلّقة؟ إنها مسألةُ "أمن".
فنُفخَ في مزمار من خلف أبواب المدينة، وظهر للناس ـ الذين لاحتْ على وجوههم مظاهر الأسف لانتهاء "عملية الإعدام" ـ جنديان يسوقان رجلاً في سنّ الأربعين، حسن الوجه، وله شعرٌ منضد جميل، ولحية حسنة التشذيب، وملابس فاخرة؛ فصاح البرّاحُ:
هذا هو الرجل الذي زنى مع تلك الزانية، ارجموه هو الآخر.
فقال الشيخُ الطيّب لذلك الرجل المنكوب في وجود زوجته:
هذا الرجلُ المرشح للإعدام أعرفُه؛ إنّه الأخ الأصغر لحاكمَ المنطقة الجنوبية؛ ولقد كان رهينة عند القاضي "الأعرج"... فاصطبر على ما أصابك أيها الرجل الطيّب!
ومع ذلك؛ واحتساباً لأيِّ وشاية قد تطيِّرُ رأسَه هو الآخر؛ أخرجَ من جرابِه سبعَ حبّات قمح، ورمى بهنّ جهة المحكوم عليه بالإعدام، ثم اختفى.
فكان نصيبُ الرجلُ/الرهينةُ ضعفَ ما أصاب المرأة المسكينة.
ومع أنّهم قتلوه؛ إلاّ أن بعض "الناس" راح يردّد عبارة:"نريدُ أن نتأكّدَ من موتِه؛ ولن نتأكّدَ إلاّ أن نراه مقطّعَ الأوصال". فسارعواْ إلى استخراجِه من تحت الأنقاض، ليتجاذبوه جثة هامدة، ويُمزقوه إرْباً إربا.
أخيراً؛ قامَ أحدُ الحُواة بالنفخ في مزماره، فسارع الناسُ للالتفاف حولَه؛ وقام مدوّرُ "عجلة الناس" بتدويرها، فجاءوا لكي يستلذواْ بالدُّوار المؤدّى عنه بفلس... ومن ثمَّ نشطت حركةُ اللهو والتجارة، وكأنّ حدثاً مؤلماً ما جرى.
كان الوقتُ سماءً صافيةً بشمسٍ لطيفة ونسيم من المستحيل أن يجري عشيّة إعدامين.
وكأنّ ما حدث من إجرام "مشروع" من صميم الطبيعة!
فجاءتْ عربة لتنقل ما تبقّى من الجثتيْن إلى قصر القاضي، دليلاً على وقوع عملية الإعدام بنجاح و"مسؤولية".

القاضي "الأعرج" ذو أنف مكسور، وعينٍ يُمنى بيضاء، وشرٍّ يتطايرُ من عينه اليُسرى، وساقٍ متخشبة، وقِصَرٍ يوحي بالخبث والدسيسة.

جلسَ في بهو قصْره على طَنْفسَة ثقيلة، ومدَّ رجلَه المريضة جهة رجُلين مهيبيْن كانا يجلسان أمامَهُ، كلٌّ على أريكة، يتحدّثان إليْه بصوتٍ يُسمعُ بالكاد.
علينا أن نتوقّعَ أيّ شيءٍ من حاكم المنطقة الجنوبية. أنا أعرفه؛ إنّه ماكرٌ وحقود، ولا أراهُ سيغفر لنا مقتل أخيه.
أنا الآخر أعرفه، فهو جشعٌ طمّاع، ويكفينا - إذا ما ساءت الأمور- أن نقدّمَ له فدية...ما رأيُك يا رئيس التجار؟ قال الأعرج للرجل الآخر..
أعتقد أنّ السيّد رئيس الشرطة على حق؛ يجب علينا أن نحتاط كثيراً من أيّة خطوة يُقدمُ عليها حاكم المنطقة الجنوبية؛ إنّي أرى فكرة تقديم فدية، غير صائبة... قد يعتبرها العدوُّ إشارةً عن ضعفنا فيحاولُ الإغارة علينا...
فجاءَ عبدٌ أسود ضخم مثل مارد، وفي نطاقِه خنجر يتنطّع:
سيّدي! بالباب رسولٌ من الحاكم الأكبر.
أَدْخلْهُ فورا! قال القاضي.
فدخَل رجلٌ ضئيلٌ خفيفٌ مثل نحلة، وتخطّى الرجلين المهيبيْن، وانحنى على القاضي ليهمس في أذنه زمناً؛ ثم انصرف كما دخل.
نظر القاضي "الأعرج" إلى رئيس الشرطة وإلى رئيس التجار بعينٍ يتطايرُ منها الغضب:
هل سمعتم برجل يدّعي النبوّة في المنطقة الجنوبية؟
تناظر الرجلان في صمت، ثم أجابا مرّة واحدة:
قطعاً لم نسمع به.
يُقالُ إنّ اسمَه "أسْكرّايْ"، وله خوارق يعجز العقل على تصديقها...
هذا غير ممكن، فزمنُ الأنبياء والمعجزات قد انتهى؛ ما هذا الرجل إلا دجّالا. وسَيْفِي هذا سيجعلُه ينسى النبوّة إلى الأبد.
وقال ريس التجّار:
أتساءلُ كيف لمْ يعرف به حاكم الجنوب فيقتله أو يقتل به؟
إنها مشكلة! ... مشكلةٌ أن يعرف سيدُنا الحاكمُ الأكبر بهذا الخبر قبلا منّا... قولا لي ماذا سأقول له؟

فقال "أسْكرّايْ":
- يا أصدقائي الأعزاء، جاءني خبرٌ سعيدٌ عبر الأثير... في عشية هذا اليوم سيجيئُنا رسولٌ من بلدتنا ليخبرَنا بأن الحاكم سيدي "عْلي"، يتمنّى أن نرجعَ للعيش على الأرض التي أخرجنا منها... فما هو قولكم؟
أخاف أن تكون حيلةً منه للإيقاع بنا. قال "أموسى"

وأنا الآخر لا أثق بالحاكم... إنها مكيدة. قال "باسّو".
لمْ تقُلْ "يامْنة" شيئاً عدا أنّ وجهَها اكفهرّ، وغابتْ ببصرها في أبعاد المحيط.
لا تخافواْ يا أصدقائي الأعزّاء! أرى أنّ سيدي "عْلي" صادقٌ هذه المرّة.
"يامْنة" لا تخاف من بطش أخيها "عْلي"، كلّ ما في الأمر هو أنّها بدأتْ تألفُ حياة الشاطئ الهادئة، والسعادة التي تجلبها لها معرفتُها لسلوك الحيوانات والنباتات المائية؛ بل إنّها صارتْ تعرفُ لغة الرمال والصخور من الآثار المرسومة عليها، ولغة الأمواج من صفيرها وزئيرها وهمسها؛ كما صارتْ تميّز الرسائل الخفية التي يرسلُها الأطلسيّ للناس من دبدبات وألوان وروائح والكثير من أسراره، ولحظاتِ مرضِه وشكواه ونجواه.
حتى المحيطاتُ تمرضُ وتشتكي. قالتْ "يامْنة".
وتذكّرت الأمس... لحظة تمدّدَ "أسْكرّايْ" بجانبها في ضوءِ قمر باردٍ رطب؛ فاشتعلَ جسدُها بوقودِ الرغبة، وقامتْ لإنقاذ ألبستِها من خطر الاحتراق... لأجل حَرْقِ جسد النبيّ. ليسَ رغبةً في قتله بنيران العشق، وإنّما لتطهيره بها منه. حتى إذا ما تجرَّدَ وصار في لباسِ القمر، رأتْ شعلتَهُ بنفسجيةً ضئيلة، فتراجعتْ خوفاً عليها من أن تنطفئَ، فقال لها:
لا تستقللي شعلتي! فالشعلةُ المستصغرةُ، قادرةٌ على حرق غابة.
فكان أن أمسكتْ بها برفقٍ وخوف، فما شعرتْ إلاّ النيرانُ تلفُّها من كلِّ تحتٍ وفوقٍ، وما أنقذها ممّا هي فيه من عذابٍ لذيذ، سوى أنّ النبيّ استعطفَ سماءَهُ، فأمطرتْ فيضاً آخر من اللذة.
سرعان ما أقبلَ فارسٌ على جوادٍ أدهمَ، وتوقف، وصاح من بعيد:
الآنسة "يامْنة"، السيّد "أموسى"، "باسّو"، السيد "أسْكرّايْ"؛ أنتم مطلوبون للحضور إلى البلدة... هذا أمرُ حاكمنا سيدي "عْلي".
ثمَّ أدار وجْهَ جواده وانطلق به كالسهم.
ما بين ابتسامة وأخرى، تغيّرَ وجهُ النبيِّ؛ إلى جهة المحيط؛ فرآه أزرق هادئاً؛ إلاّ أن طيور النوارس كانتْ قلقة حائرة ما بين السماء والأرض. أسماكٌ حيْرى - هي الأخرى - اضطربتْ على صفحة الماء؛ وآلافُ السلطعونات خرجتْ من جحورِها، وجرَتْ في كلِّ اتجاه.
ما بالُك قلِقٌ يا "أسْكَرّايْ"؟
همسَ:
سمعتُ انهياراً يحدثُ في عرض المحيط، ورأيْتُ اهتزازه يخترق جسدي باتجاه بلدتنا... إنّها كارثة زلزالية... علينا أن نسرع لإخبار الناس.

فقال "أموسى":
يا ليت ذلك الفارسُ لم يتسرّع...
كمْ لدينا من الوقت لتجنيب الناس خطر الكارثة؟ قالتْ "يامْنة".
ليس كثيرا. قال " أسْكرّايْ".
كيف سنفعلُ إذن؟ هل سنطير؟ قال "باسّو".
أجل! سنطير.
فأفردَ عباءَته، وغطّى بها أصحابه الذين ما ارتدّتْ أجفانهم على بعضِها، حتى وجدواْ أنفسَهم أمام أنقاض بيت "تيسْليتْ".
كانواْ يلهثون وكأنّهم ـ في ثانية ـ قطعواْ ـ جَرْياً ـ العشرين كيلومتراً الفاصلة بين الشاطئ والبلدة. وهُمْ لا يشعرون بأعضائهم في أماكَنها.
انتابتهمْ للحظات نوبةُ هلع؛ فالذي كانتْ عينه في اليمين، هبطتْ إلى مستوى الذقن، والذي كانَ فمُهُ في الوسط، صعدَ إلى الجبهة... وهُمْ يصرخون من الخوف، وهو يضحك.
لقدْ سافرتُمْ عبر الزمن، والزمنُ كفيلٌ بإرجاعكُم إلى صورتِكُم الأولى. قال النبي.
فكان ما أخبر به، وعادت الأعضاءُ إلى مكانَها؛ وأضاف:
ـ انظرواْ إلى هذه البلدة الآمنة! لا ينبغي أن يُدمِّرَها زلزال.
فشرعواْ يصرخون:" اخرجواْ من بيوتكم؛ زلزال قادم!
فجاء الفارسُ. الذي ما إن رأى الأشخاصَ اللذين استدعاهم سيِّدُه؛ وصلواْ قبلا منه، حتى أسقط نفسه من على جواده، وحبا إلى أن بلغ رجليْ "أسْكرّايْ"، فقال:
ـ أنا "مُوحْ"؛ أشهدُ أنّك نبيٌّ.
ثم استقام وشرع هو الآخر يصيح...
تجمهر الناس في وسط البلدة. وكنتَ لترى بعضَهم خرج عارياً حافياً إلا من مئزر ودِكٍ قصير فقير، ومن يجرجرُ بيدٍ متعرّقة أسمالاً وخرداوات، ومن استحْملتْ زوجَها على ظهرها ناسيةً أطفالَها، ومن استحملَ أمَّهُ المائتة أو أباهُ المئَوي بين يديه ناسياً زوجتَه وأطفاله؛ والكثير من هولاء جرواْ إلى وسط البلدة فرحين متشوفين إلى "كارثة الزلزال" غير آبهين بهلع الكبار.
ثم خرجَ سادة القومُ بأيادي خفيفة إلا من صُررٍ بها ما خفَّ وزنُه وغلا ثمنه.
وكان أوّل الخارجين من علِّية القوم؛ الفقيه سيدي "أحمد بن محمد" بصُرة من الذهب وكُتيِّبٍ في "علم السحر" ضمّه إلى صدره بقوّة، ثم القبطانُ سيدي "مْبارك" وابنُه ونساؤه الصامتات؛ وفي الأخير خرج الرجل الأول؛ الحاكمُ سيدي "عْلي"، متبوعاً بحرسِه وحريمِه.

حشدٌ نهائي وضوضاء عارمة، لكن الحاكم أمر بالصمت.
صمت الجميع... بما في ذلك الأبقار والبغال والخيول والحمير والكلاب...
فاتّجه إلى "أسْكرّايْ" قائلا:
ـ استدعيناك للسلامة، فإذا بك تأتينا بالخطر.
فردّ:
لو لم أعلم بالخطر الذي سيضربُ بلدتَنا بعد حين، ما جئتُك بهذه السرعة.
ولمْ تحدث كارثة... لا بعد ساعة، ولا بعد ساعتين وليلة كاملة وصباح؛ والناسُ متجمهرون، خائفون، مرضى، عطشى، وجائعون.
فقال الحاكم:
ما أضنّك إلا دجّالا أ ترى؟... لم يحدث أيّ شيء.
بلْ جاء رجُلٌ ـ معروفٌ بامرأته الشمطاء النّكَدِية ـ يولول من الخوف والغضب، مستنجدا بالحاكم تارة، وب"أسْكرّايْ" تارة أخرى:
إنّها زوجتي...لقد صار منها اثنتان.
ثم جاء رجل آخر وقال:
سيدي الحاكم؛ كان لي ولدٌ مراهقٌ طائش، فصار منه اثنان، وكان لي كلبٌ أسود ببقعة بيضاء على جبينه، فصار لي كلبان؛ أنادي الواحد منهما باسمه "سِوارْ"، فيأتيان معاً.
ثم جاءتْ "ظزوتان"، ثم "مُوحْ" آخر على جوادٍ أدهم آخر، وحتّى السيدة "حادّة" (زوجَةُ القبطان) جاء منها اثنتان... فقالَ الحاكم:
ـ صرنا نرى من كلِّ مصيبة اثنتين، فهل لك علاقة بهذه المصائب يا "أسكرّاي"؟... ثم أين هو الزلزال الذي تنبأتَ لنا به؟... أقسمُ بالربّ... ما أضُنّكَ إلا دجّالا!
أغمضَ النبيّ عينيه لبعض من الوقت، ثم قال:
أعتقدُ أنّ الزلزالَ حدثَ ـ ليس في الأرض ـ بل في جسدِ الزمان... وهو كَشَقٍّ أراهُ يضاعفُ الأشَياء...
أوضِحْ أيّها...ال"أسْكرّايْ!"
فردّ بهدوء:
ـ أرى أن الزلزالَ الزمني هو سبب تضاعف المخلوقات؛ ولذلك؛ فمن له بقرة صار له بقرتان، ومن له ولد واحد، صار له ولدان، ومن له امرأة نكدية، صار له امرأتان نكديتان، وإنّي أخافُ من الذي لهُ مشكلة أنْ يُصبحَ له مشكلتان، ومن لهُ مرضٌ؛ مرضان؛ ومَن له طمعٌ؛ طمعان، ومن لهُ وجهٌ؛ وجهان... وقِسْ على ذلك... بَلْ إنّني أخشى أن تتضاعفَ

الأضعافُ فنصبحُ على آلاف الأطماع والسيوف والأشرار والأمراض... ولهذا يتوجّبُ علينا البحث عن "الشقّ" المُحدث في جسدِ الزمان وأن نرتقه...
وما أنهى النبّيّ كلامه؛ إذ رأى عبدا يجرُّ حمارا على ظهره خَرْجان مليئان بالدنانير الذهبية.
ـ سيدي الحاكم؛ هذه الأموالُ ثمن حريّتي فاعتقني، بموجب صك! قال العبد.
خلفهُ رجلٌ معروفٌ عنه الفقرُ المدقعُ، بحمارين على ظهرهما أربعةُ أخْراجٌ مملوءة بالذهب، فقال للحاكم سيدي "عْلَي":
كلُّ هذا الذهبُ، صَداقٌ لأختك "يامْنة".
والحاكمُ والناسُ مبهورون لَا يُصدّقون ما يرون ويسمعون...
رجلٌ كاَن بحدَبة جاء بحدبتيْن، ومن ورائه أحدب آخر بحدبتين، ثم كسيحان متشابهان أتيا، فامرأتان لم تكونا لتظهرا للشعب، وما هما سوى "تضاعُفُ" لامرأة الحاكم التي أخفاها دوماً عن الأنظار وكانتْ ـ عكس ما تصوّره الناس ـ آيةً في الجمال؛ ومن ورائها تجري "تيتريتتان" غيورتان... أمّا الكلبُ "أدايْ" اللطيف، فلقد جاء منهُ قطيعٌ من الكلاب المتشابهة...
فقال الحاكم:
أتقبّلُ أن تتضاعف المخلوقاتُ والعاهاتُ والأموالُ والأسلحة إلا أن تتضاعف زوجتي " كبيرة"؛ فأنتَ، يا " أسْكرّايْ" لا تعرفُ معاناتي معها، فهي لا تكفُّ عن ثلاثة أمور:الأكل والكلام والنوم... أرجوك؛ ضعْ حدّاً لهذا التكاثر الفظيع!
فجاءَ منْ كلِّ مَنْ ومَا عرفته البلدةُ اثنان، وأربعة، وثمانية، وستة عشر... حتى ازدحم المكانُ بكلِّ أصناف التعدُّدات...
فصرخ "عْلي":
ـ هل أنتَ خلف هذه الكارثة يا "أسْكرّايْ"؟
فأجابَه وهو يبتسم:
أقسمُ بالربّ... إنّه الزلزالُ.
وأضاف:
هيّا بنا لنكتشف ذلك الشق الحادث في الزمان!
فراحت الأهالي ـ كما في "كارثة الصمت والكلام"ـ يستكشفون الشقّ.
فإذا به مزقٌ في نسيجِ الزمان بقامة رجل، على مدى فرسخ؛ إذْ حدّدوه بالتجربة، والحجارة الكلسية البيضاء على خطّ غربيٍّ/ شرقي.
للحرص، أمر الحاكمَ عساكِره بتطويق الشقّ الزماني وإطلاق النار والسهام على كلّ من يحاول عُبورَه.

لساعات طوال تجمهر الناسُ، وداروا حول "الشقّ" كما تدور عقاربُ الساعة، مترصّدين الفرصة لاختراقه لغرض مضاعفة ما يمتلكون من حقارات؛ فهذا أمسكَ بدجاجة بيّاضة هي كامل ثروته، وآخر له درهمٌ فضّيٌ ادّخره لعشرين سنة يُبديه ويُخفيه متحرّشا ب" الشقّ"، وثالثُ أحكَمَ قبضتَه على عبدٍ مُستهلك كان شراهُ بريال أيّامَ "تخفيض أثمان العبيد" ليجعل منه قطيعاً من العبيد، وما علمَ أنّ العبدَ هو من يشدُّ بقوّة على يده لأنّ في جيبه درهمٌ ذهبي مسروق وينوي، إذا ما تضاعفت ثروتُه أن يشتريَ سيِّده؛ فامرأة بيّاعةٌ للسواك و"الحركوس" والحناء في السوق الأسبوعي للبلدة، وبيدها صرّةٌ مال قليل، تنوي مُضاعفتَه من خلال رميه عبر "الشقّ"؛ وأخرى بدملجٍ غليض لا هو من فضة ولا هو من نحاس، لكن عليه رموز وتواريخ يهودية قديمة...

الأطفالُ هم الآخرون فهمواْ قيمة "الشقّ"، لذلك ترى الواحدَ منهم يشدُّ على لعبته المفضلة، وآخر أمسك بفردة صندلة يُمنى (لا بأس إن انتعل فردتين يُمنيين)، وآخر متخلّفٌ عقليا في يده دمية ويعتقدُ أنّها بعبور "الشقّ"، ستصير امرأة حقيقية؛ وجاء حمارٌ يدفعُ حمارة جميلة بعينين كبيرتيْن وأهداب كبيرة...

كانوا يدورونَ مثل عقارب الساعة والحاكمُ وعساكره يدورون معهم تحسّباً لأيّة مُفاجأة. في غفلة مّا، رمى القبطانُ نفسَه عبر "الشقّ"، فصار منه قُبطانان، ومن الجهة الأخرى رمى القبطانان نفسيْهما ليصيرا أربعة؛ فانتبه الحاكمُ لمطامع قبطانه في استكثار نفسه لأجل الاستيلاء على الحكم؛ فأمر عساكرَه بإطلاق النار والسهام على القباطنة الخائنين. وهكذا قُتلَ سيدي "مبارك" وضعفُه، وأضعافُ ضعفه.

"... ولماذا لا أستكثرَ نفسي؟" قال سيدي "عْلي" في نفسه؛ فتقَدّمَ إلى "الشقّ" وهو يفكّر في العدد الذي سيصير عليه، وبإرسال نُسخ منه إلى مختلف بقاع الدنيا للسيطرة عليها؛ كيف لا يُسيطر وهو على وشك أن يصبحَ ذو مال كثير وجيش كبير؟ فما إن دخل في " الشقّ" وخرج منه "عليان" حتى انتبهَ لخطأه الفادح، إذ؛ بمجرّد أن قال لنسخته "الحاكمة":

ما رأيُك أيّتُها النسخة فيما أقدمتُ عليه؟ فردّتِ "النسخة الحاكمة":

بل ما رأيُك أنت فيما أقدمتُ عليه أنا؟

إذاك فهمَتْ "النسختان" أنّ أحلامهما في "الاستكثار والسيطرة" ليستْ سوى ضرباً من الوهم، وبأن "اللحظة" هي للاقتتال حفاظاً على كيْنونة "حاكم واحد/أحد"، وضماناً لاستمرارية نفس الوجود المبني على طبقات العبيد والحرفيين، الجند والأسياد؛ والمبني كذلك على نفس الثنائيات: لبيبُ/أحمقَ؛ نهارُ/ليلُ؛غنيٌّ /فقيرُ؛ رجلُ/ امرأةُ؛ راشدُ/طفلُ؛ أبيضَ/أسودَ؛ إنسانُ/حيوانُ؛ عالمُ/جاهلُ؛ ابنُ بلد/غريبُ؛ ذكرُ/أنثى... من دون اعتبار للحالات الوسطى ولحقيقة وجود تدرّج ما بين طرفَيْ هذه الثنائيات

وذلك راجعٌ - بالأساس - إلى اعتقادهم بأن "الحقيقة" مبنية على "خطّ"؛ من غير إدراكهم بأن "حقيقة أخرى"تنبني على "مساحة"، و"حقيقة ثالثة" مبنيةٌ في "فضاء"، و"حقيقة رابعةٌ" بُعدُها "الزمن"، و"حقيقةٌ خامسةٌ "،جوْهرُها اللامُتناهي"في كل شيء، و"حقيقة سادسة"روحُها "الخيال"...

فراحت" النسختان" تقتتلان، ضربةً لضربةٍ، خِنجراً لخنجرٍ، سيْفاً لسيفٍ، رصاصة لرصاصة...

والناسُ يتفرجون على "الحاكم ونُسخته"، ناسين أطماعَهم الخاصّة، لليلة كاملة، ثم لنهار جديد كامل، ثم لأسبوع، فشهر؛ وذلك راجعٌ لكون كل "نسخة حاكمة" تعرف ما تنوي "نُسخَتُها" القيام به.

لكن الأمر العجيب هو أن المحكومين من سوادِ الناس وعليَّتِهم، كانواْ يتابعون الحربَ الدائرة بين "نُسختيْ" الحاكم باهتمامٍ لا مثيلَ له، غير مَنتبهين إلى فقرهم وعذابهم، وآملين أن تنتهي الحرب بفوز "إحدى النسختين"، وبأن يعودَ الوجودُ إلى صورتِه الأولى؛ تلك الصورة التي وصفناها سابقاً، والتي ألفوها.

من التعب ومن شعورِه بعدم جدوى أن يُفهِمَ أهلَهُ ما لا يستطيعون فهْمَه؛ غرق "أسْكارّايْ" في سُباتٍ دامَ عدّة أشهُر... وعندما استفاق، رأى أنّ الجنودَ ما زالواْ يحاصرون " الشقّ" وبأن "نسختيْ" سيدي "عْلي" ما زالتا تقتلان.

مع استفاقته، طعنتْ إحدى "نُسختيْ" الحاكم سيدي "عْلي" نُسْختَها.

صرخَ " أسْكَرّايْ":

لقد رأيْت...رأيتُ امرأة خضراء تمتطي صهوة سمكة ذهبية لها ستّة أرجل وأربعة أجنحة كلّها يمنى، وفي فم تلك المرأة شيءٌ مثل كرة من لُعاب، وقالت لي :"عليك برتق الشقّ"! ثمّ انصرفتْ مخلّفةً وراءها رائحة.

فقال الناس:

كيف؟

فشرع "النبي" يستخرج ـ بيديْه ـ خيطاً حريريا من فمِه، ثم استلَّ شوكةً من جسمِه، وذهب يخيطُ "الشقّ".

فكان مع كلِّ رشقة شوكة وعودتها، تختفي امرأة أو ولد أو مالٌ... حتى عادت البلدةُ إلى وضعِها الأول؛ وكأنّ زلزالا زمنياً لم يحدث.

6

فتح "أسْكرّايْ" باب بيتِه القديم، فرأتْ "يامْنة" غزلاً كثيفاً من خيوط فضية يحجبُ الرؤية، وعدداً لا يُحصى من العَناكبِ الشفّافة الهادئة؛ ولمّا رأت هذه الأخيرةُ النبيّ، سارعت إلى الحصى والرمل والطينَ وأشياءَ دقيقة أخرى غير مرئية لتجمِّعَها في شِباكٍ من صنعِها، ولتلقي بها خارج البيت؛ و"يامْنة" مستغربة مبتسمة.

لم تدُمْ حَملةُ التنظيفِ الثانية هذه لبيتِ "أسْكرّايْ" أكثر من بضع دقائق كانتْ كافية بالنسبة للعناكب النشَيطة لجعله يلمعُ من النظافة، وليس من شيء آخر.

فطارَ عنكبوتٌ إلى يد"أسكرّايْ"، وشرعَ يلحسُها، ومنها طار إلى حلْمَة أذنِه ليهمسَ فيها، فكان أن قال لها:

ـ لا تقلقي!سأفعلُ!

فطار وباقي العناكبِ عبر النافذة؛ إذاك سألتهُ "يامْنة":

ـ هل تكلّمُ العناكبَ؟

ـ أجل!

ـ هل تكلّمُك العناكبُ؟

ـ أجل!

ـ وماذا تقاولتُما؟

ـ في البداية رحّبتْ بعودتِنا، ثم سألتني أن أكلّمَ الناس بعدم إيذائها لأنها كائنات (مثل الجِمال)، نافعة وصبورة.

وسألتْه:

ـ هل لدى العناكب رئة وحنجرة ولسان وأسنان وشفتان حتى تستطيع الكلام؟

فأجابها:

ـ نعم... لكنّها في شكل آخر.

فنظرتْ في عينيه، وما رأتْ سوى بؤبؤين سوداوين، ونظر هو بسمعِه إلى قلبها، فرآه يخفقُ بسرعة، فأمسك بيدِها وقال:

ـ دعيني أريكِ بيتي الحقيقي!

فرأتْ القدر.

ـ هذا القدرُ كان مهدي وملجأي وحمايتي من الأصوات القبيحة، وتحتهُ كنتُ أجدُ راحتي وأستجمع قوايَ وأفكاري.

فتحسّسته بيدٍ جميلة. فقال لها:

- أشعر أنّك فهمت وبأنّ قلبَك عمّته الطمأنينة.
فكان لا بُدَّ لَها مِنَ أنْ تختِم على شفتيه بقبلة.

العشق.... والوقتُ صباح.
بالأمسِ باتا ببيتِ الحاكم سيدي "عْلي" للمرّة الثامنة، وكان أن رأتْه وأخاها في غرفة حكمه، وهما يتحادثان بهدوء ومودّة.
قال الحاكم:
- أرى يا صديقي وصهري العزيز أنْ تضع حدّا لكارثة التضاعف التي ضربت بلدتَنا.
وكان قلبه يخفق بالصدق؛ فردّ "أسْكرّايْ":
- سأفعل.
وسأله عن أخته هل هي سعيدة معه فقال له:"اسألها هي!" وسأله هل هو سعيدٌ مع أخته، فقال له:"أختُك السعادةُ نفسُها".
- سأبني لكما بيتاً عظيما وأوفّر لكما أموالا وخدما. فكان ردّ النبيّ:
- لا أهتم لمثل هذه الأشياء، ولا أختُك تهتم لها.
- كيف لا يهتم الواحد منّا بأسباب العيش الرغد؟
- المال وسيلةٌ للعدل. قال النبيّ.
كان ذلك بالأمس.

بعد أن رُتِق "الشقّ" الذي في جسد الزمان، قرر الحاكم أن يفتعِل احتفالا بالمناسبة، فجاءته فكرة إقامة مسابقة لأجمل الحيوانات الأليفة من خيول حرب، وجِمالِ أسفار، وأبقار حليب، وكلاب صيد، وبغال سخرة، وماعز تسلق، وأرانب جرْيٍ، وحَمير دراسة.
واقترح بعض الأهالي أن يتمَّ توسيعُ نطاق المسابقة بالنظر في أجمل النساء جسداً، وأحلاهن طبخاً، وأحسنهن لباساً، وأعذبهن صوتاً، وفي أجمل الرجال سرعة وقوّة.
استحسن الحاكم الفكرة لرؤيته ازدهارَ البلدة اقتصادياً عندما ستأتي أقوام البلدات المجاورة لمتابعة السباقات، ولما في ذلك من تلميع لصورته لدى الحاكم الأكبر.
لإلهاب السباق، استدعى سيدي "عْلي" فرقةً "كْناوَة" حَقيقية (كل أفرادها من الزنوج وليس فيهم واحدٌ أبيض) من بلدة ساحلية شمالا ، فجاءت الفرقةُ بلون جلدتِها الأسود، وبألبستها الحمراء والخضراء القصيرة، والمزوقة برموز سحرية، وبطبولها و"قَراقيشها" المُفرغة في الحديد، وبرجالها الذين يطيرون قفزاً.
- دَوْ دَوْ دَوْ...
تقول الطبول.
- قَشْقَشْقَشْ...

تقول "القراقيش".
والحاكمُ فرحٌ يضحك، وكأنّه يفهمُ لغة الطبول وال"قَراقيْش".
بَيْدَ أنَّ "أسْكَرّايْ" الْتزم بيْته، وجلسَ لَصْقَ التي أمسَتْ زوجتَه بشكلٍ رسمي لمّا باركهما الحاكم.

كانتْ "يامْنة" مثل مريضة، تجري من حين لآخر إلى خار الغرفة لتسترجعَ ما بمعدِتها؛ فقال لها النبيّ:
- أرى أنّكِ حامل، وإنّي أسمعُ دقّات قلبِها السريعة وجَرَيَانْ الدم في عروقها النحيلة.
فسألتْه:
- كيف عرفتَ بأنها طفلة وليس طفلا؟ أ لا يقولون ":لا يعلمُ أحدٌ ما في الأرحام؟"
فقال:
- ثقي بي! إنّها طفلة... فأيُّ اسمٍ ستختارينهُ لها؟
فردّتْ بصوتٍ أنهكهُ الاسترجاع:
- ما رأيُكَ أن نسمّيها باسم المرحومة والدتك؛ "إيطّو"؟ فقال:
- لا! لا! ... سنسمّيها "مباركة".
- منْ أيْن جاءَك اسْمُ "مباركة"؟ هل سَبَقَ أنْ عرفتَ امرأةً بهذا الاسم؟
- لا! ولكنّه اسمٌ جميلٌ أحبِّه.

الفقيه سيدي "أحمد بن محمد" هو الآخر التزم بيتَه، وجلسَ بجلباب صوفي أغبر على كرسي مستقيم السند، وبين يديه على المكتب، كتبٌ مفتوحة ومخطوطات قديمة، وأحْرَاز وطَلاسم كانت في ملك سيدي "ربّي بن عمران" المخطوف؛ وذلك الرسمُ الشبيهُ ب"أسْكَرايْ"، وذلك السؤال الذي خطّه السيد المخطوفُ بيده "ما هو سرّه"، ومجموعة من كتب ورثها عن شيخه؛ يدرسُها بتركيز عميق ما أخرجهُ منه سوى طَرْقٌ على بوّابة بيته.
تأخّر عن الاستجابة، فعاد إليه الطّرْقُ مُستفِزّاً وكأنّه يقول له:"أيُّها الفقيه، إيّاك أن تتأخر عن الذي يطرق بابَك!"
فجاءَهُ خاطر "الفقه" وقال له:
- دَعِ الأمرَ الذي بيَن يديْك ولَبِّ طلبَ الطارق!
فسارع إلى البوّابة يفتحُها، فإذا به يرى جنبَ النخلة الوحيدة التي بجانب بيته، شيخاً يعتمر "رزّةً" بيضاء ويرتدي "سلْهاماً" أبيضَ، وفي رجليه زوج حذاء أصفر، وعلى يدِه اليُسرى طائرٌ صقرٌ كفيف البَصر، بينما يدُهُ اليُمنى فارغة.
نظر إليه لحظة ثم قال له:

ـ هل أنتَ من طَرقَ بيتي؟ فردَّ الشيخ:
ـ أجل أيها الفقيه.
ـ ماذا تريدُ؟
فردّ الشيخ:
ـ جئتُ لأخبرك بأن النبيّ "أسْكرّايْ" في خطر، وبأنّ صديقك "ربّي بن عمران" يبلغك التحيّة، وينصحك لأجل معرفة الحقيقة، أن تمسحَ صفحة مكتبك من كلّ كتاب وسؤال قديم من قبيل "كيف؟ ومتى؟ وأين؟"، وأن لا تدع عليها سوى هذا السؤال:"لماذا؟"... لماذا جاز للنبوّة أن تكون في المغرب، بعد أن انتهى أمرُها في المشرق؟
ثم أدار وجهه جهة لأجل الانصراف، فاستبقاه الفقيه بقوله:
ـ لماذا لمْ تذهبْ إلى "أسْكرّايْ" لتخبره بالخطر الذي يتهدَّدُه؟
فاستدار الشيخ ليقول:
ـ كنتُ سأفعل؛ لكنَّ نبوّةً طارئةً في الشمال استعجلتني؛ والنبيُّ "أسْكرّايْ" في هذه اللحظة مع زوجته، ولا أرغبُ في مضايقته.
وأضاف ذو الصقر:
ـ ... أعتقدُ أنّ هذا القرن، قرنُ استيقاظ "النبوّة" من رقادِها، لأجل أن تكفكف دموع المستضعفين في العالم، وجبر خاطرهم؛ ولأجل الانتقام مَن المستبدّين وكسر شوكتهم...
ـ لكن...
ـ أخبر النبيّ بأن القاضي "الأعرج" قرر إرسال الجند لاعتقاله.
ثم جرى بضع خطوات وطار بصفق جناحيْ" سِلهامِه" والصقرُ الضريرُ في يدِه يقول له:
ـ ليس من هذا الاتجاه يا سيّدي...طِرْ نحو الشمال!

عادت الحياةُ بالبلدة إلى مجراها الطبيعي الفاتر البطيء، وجاء يومُ السوق الأسبوعي، فخرج إليه "أسكرّايْ" ـ مثل سائر الناس ـ ليشتري بعض الحبوب والزيت؛ وفي طريقه، سارع إليه صديقاه "أموسى" وسيدي "أحمد بن محمد" الذي قال:
ـ إنّ قاضي المنطقة الشمالية عازمٌ على إرسال الجُند لاعتقالك.
فابتسم وقال:
ـ سمعتُ هذا الكلام.
ثم أضاف:
ـ لا تقلقا بشأني يا صديقايّ! والآن، اتركاني أمضي لشؤوني!
ـ ليسَ قبل أن تعدَني بزيارة لكيْ نُناقِشَ معاً موْضوعَ اختفاء الفقيه سيدي "ربّي بن عمران". قال الفقَيه.

ـ لتكُنْ الزيارةُ ليلة غد!
فانْصَرَفَ يتجول في السوق عبر الأصوات الظاهرة والباطنة، القريبة والنائية، وأبخرة الأحياء وأرائِج الفواكه والخضر والأعشاب الطبيّة، وعطور النساء الزكية، وروائح المكر والغش والطمَع والخوف...
وسيدي"أحمد بن محمد" يقول لسيدي "أموسى":
ـ ماذا علينا أن نفعل؟ هل نخبر سيدي الحاكم؟
ـ نخبره بماذا؟
ـ نخبره بأنّ سيدي "أسْكرّايْ" في خطر.
ـ سأخبره بنفسي ـ قال "أموسى" ـ وإنّي أرى أنّه لن يسمح لأيّ أحد بإيذاء "أسْكرايْ"... إنّه صار يحبّه.
فانبعث من خلفهما سيدي "أيّوب" الذي سمع ما قالاه:
ـ أنا الآخر صرتُ أحبُّ سيدي "أسْكرّايْ"، ولن أدخرَ جهداً للدفاع عن حريّته وحياته.
وقال "باسّو":
ـ وأنا كذلك سأموت من أجلِه.
وقالتْ مجموعة من الرجال والنساء:
ـ ونحن كذلك سنموت من أجله.
هذا الكلام؛ لمْ يسمعْه النبِيْ. فلقدَ الْتقط بصرُه السمعيُّ صورةً لِقلبِ امرأةٍ عابِرة تبيعُ الخبز.
ما كانت من أهل البلدة، وما كانت حرفتُها التجارة، ولا لها خبز كثير لتبيعَه، ولا كان لها صوتٌ تنادي به على الزبائن المفترضين...
كان لها ـ فقط ـ تسعُ خُبْزات، وحزنٌ مدفونٌ في صدرها، وقلبٌ ينبضُ بالكاد.
تقدّم منها "أسْكرّايْ" وسألها:
ـ كم ثمن هذا الخُبْزات التسْع؟
فأجابتْ بمجموع أصابعِها مرّتين.
ـ عشرون فلساً... طيّب سأشتريه. وناولها المال فأعطته خبزاتِها التسع.
لم يسألها إذا ما كانت بكماء، فلقد سمع الكلامَ المحصور في حلقها لعَشْرِ سِنين وتِسْع، ورأى على وجهها ذبذبات الحزن، ومع ذلك سألها:
ـ كم عمرك أيتُها الطفلة؟ فسألته بيدِها:
ـ لماذا تسأل عن عمري؟
فانحنى عليها زمناً وما قال شيئاً، إلاّ أنّ قلبَها خفق بقوّة، ومدّتْ يديْها لتقول:
ـ تسع عشرة سنة.

فسألها:
ـ ما اسمُك أيّتُها الفتاة؟
فنظرتْ إليه بعينين سوداوين كبيرتين مُبللتين بالدمع فقال لها:
ـ اسمك "مُباركة"؛ أ ليس كذلك؟
فاستغرَبت لمعرفته اسْمَها وهي لم تنطق به، وخافت منه، فقال لها:
ـ لا تخافي، فأنا لا أعرفك، وإنّما سمعتُ الكلام المنحصر في حنجرتك.
وعندما أجهشتْ بالبكاء، مسح بيده على وجهها، فشعرت بهدوءٍ جميل، ثم أدخل يده من تحت نقابها، وأمسكَ بحنجرتها وراح يفركُها برفق، وقد أغمضتْ عينيها لترى الكلام المقيّد بالحبال الصوتية مثل طيور صغيرة مختلفة الألوان وهي ترفرف بأجنحتها بعيداً.
فسألها:
ـ ما اسمُك؟ فأجابتْ:
ـ "مُباركة".
ـ ها قدْ صرتِ تتكلّمين يا "مُباركَة". قال النبيّ، ثم ألقى في قلبها نظرة أخيرة، فرآهُ يخفق خفقاً جديدا فيه الخوف والإعجابُ و...الحب.
فسألته:
ـ من أنت؟ فقال:
ـ اسمي"أسْكرّايْ"... خذي هذا المال ولا تكشفي السرّ الذي صار بيننا!
فأمسكتْ بكلتيْ يديْها يدَ النبيّ، فشعرتْ بها لا تشبهُ أيدي بني البشر، إذْ كان ظهرُها خشناً شائكاً قليلا، بعكس بطنها الناعم.
وأحَسَّ هو بيديْها رطبتين مثل الزبدة، ساخنتيْن مثل السَّمْن، حُلوتيْن مثل الزّبيب، ظهراً وبَطْنا.
فما شعر إلاّ وهو ينحني لتقبيلهما.
"أنا مثلُ سائر البَشَر، أصيبُ وأخطئُ... وقلبي؛ ما رأيتُ له القدرةَ على الاكتفاءِ بعشقٍ واحد." قال لنفسه التي خلْخلَها عشقٌ جديد.
وقال للتي جعلتْهُ مثلَ سائر البشَرَ:
ـ أعتقدُ أنني سأراك الليلة...
فقبّلتْ هي الأخرى يدَه بشفتيْن بَتولتيْن، وقالتْ:
ـ سيّدي؛ أتمنّى أن أراك ثانية... استرجعْ صُرّتَك؛ فأنا في غير حاجة إلى مال.
لكنّ "أسْكرّايْ" أصرَّ أنَ تحتفظَ به.

لو كان يرى الألوان، لرأى جِلْدَ "مباركة" مكْسُواً بأزهار جميلة مختلفة الألوان؛ منها الوردي والأحمر والأبيض والأصفر؛ أزهار زادَها سائِلٌ ذو رائِحةٍ زَكيّةٍ، جمالاً لذيذاً على جمال.
ولكنّه لا يرى الألوان ولا يتعرّفُ الروائحَ...
انصرف "أسْكرّايْ" إلى بيتِه وفي قلبه شيءٌ من يدَيْ"مباركة" وجِلْدِها وقلْبِها...
وبالخبز؛ وانصرفتْ "هي" وفي قلبها "أسْكرّايْ" كُلّـُه...
إلى بلدتِها؛ وفي نيّتِها أن لا تخبر أحداً بالمعجزة التي عاشَتْها مع ذلك الرجل "الجُدْجُدي"، باستثناءِ أخيها "بوبكر" ذي السنوات التسع، الأصم ـ الأبكم.

وجدَها في مطبخ عامرٍ بالخضر والفواكه واللحوم، خلفَ نارٍ عليها قدرٌ بلحم الماعز والخرشوف.
ـ إنه الحاكِم من أرسَل كلَّ هذه الخيرات؛ وإنّني تشوّقتُ إلى لحم الماعز وأزهار الخرشوفِ وسيقانه... أعتقدُ أنّه الوحْم.
فما قال لها شيئاً عدا أنّهُ قال لنفسه:"لوْ كنتُ رسولا لحرّمتُ أكلَ اللحوم".
"للحيوانات ذكاؤها وأحاسيسُها وَأخلاقُها الفطرية، وتفكيرُها الخاصُّ و لُغتُها؛ فلماذا ننكر عليها هذه الصِّفات المُماثلة لصفاتنا؟"
فكان أن دعتْهُ للركوع وتحسُّسِ بطنِها الَساخن، وقالت:
ـ أخبرْني ماذا تقول ابنتُنا "مَباركة"؟
ـ دعْك من هذا الأمر؛ فالأجنّةُ لا تقول شيْئا! وحتى إذا ما تكلَّمَتْ، فلنْ تخبرنا بشيءٍ ذي قيمةٍ، فحياتُها مثل حياة شراغيف الضفادع. والآن؛ دعيني أنام.
الوقتُ ما زال نهاراً، بيْدَ أنّه نام قريباً من ساعة الغروب، فجاءه حُلُمٌ:
هو و"مُباركة الخبز" ببيته الشاطئي. لكنّها لمَ تكنْ تلك المرأة التي رآها في السوق؛ رآها مثل سمكةٍ أنثى بألْوَان قوْسِ قُزح، وصامتة تجَرجرُ بطْناً مثقلةً، في ماءٍ مفترضٍ؛ وهو مثل سمكةٍ ذكرٍ بدون ألْوان، يقتربُ منها في ظُلمَة الماء، في ضوء العشقِ...فما إنْ ضرب على بطنِها بذيلِه، حتى باضتْ تسْعَ بيضاتٍ، سبعةٌ منها بألوَان قَوس قُزح، والثامنةُ بيضاء، والتاسعة سوداء.
فاستفاق في نومه، وسأل نفسَه:
ـ ما معنى هذه البُيوض الملوّنة؟ فأجابته:
.... البنفسجيُّ ولادَة، والنيليُّ مُعاناة، والأزرقُ سعادة، والأخضر نُبُوّة، والأصفرُ عِزٌّ، والبرتقاليُ وَهمٌ، والأحمرُ خطيئة، والأسودُ موتٌ، والأبيضُ غُفران.

فما أرادَ فهْمَ هذا التأويل، وقرَّر أنْ يهربَ من واقع الحُلُم، إلى وهْمِ النهضة، وفي قرار نفسه المعنى الحقيقي لكلِّ تلكَ الألوان. فكانَ منْه أوّلُ تصرُّفٍ أنانـي عندما قال لزوجتهِ المثقَلة بالحَمْل:

ـ رجاءً... آتيني بقليل من الماء!

***

عنْدَ بلوغها البيتَ، سارعتْ أمُّها "الغالية" لاستقبالها، وكان أبوها (وهو صانع سُروج) ما زال يخيطُ السرجَ الذي ابتدأه في الصباح، فناولَتْ والدَتَها صُرّة المال وسارعتْ إلى غرفة أخيها "بوبكر" لتخبره بالسر، لكن، لا صوتَ خرج من حنجرتها.

في ليلتها،في نومها؛ جاءتْها صورة "أسْكرايْ" على شكل جدجد أحمر، راكباً على حصانٍ أسْود وما له قوائم،يدعوها إلى الذهاب إلى بيتٍ شاطئي مهجور بسطّيحة معلُوّة بالقصب، فقالت لتلكَ "الحشرة البشرية" الفاتنَة:

ـ أعرفُ ذلك البيتَ إذْ سبق لي أن زرتُ جوارَه ذاتَ طيْشٍ طِفْلي... وإنّني ذاهبةٌ إليه غدا.

ـ نسَيتُ شيئاً في بيتنا الذي في الشاطئ، سأذهبُ غداً لجلبِه.

قال "أسْكرّايْ" لزوجتِه؛ ناسيا تماماً موعِدَه مع الفقيه.

فجاء الغَدُ؛ فوجدَهُ منتَظراً، وهي آتية.

ـ أنا لكَ أيُّها الجدجدُ الأحمَر! قالتْ له بصوتٍ مستعاد.

فرآها بسمعه، غارقةً في العُرْيِ من تحت مئزرِها، فأمسكَ بها برفق، وأخضعها للحب.

لم يكنْ بمقدَوره أن يَرى "الأزهار" التي تكسو سائر جسدِها.

فقالتْ:

ـ لا يصحُّ هذا في ضوء النهار!

فأجابَها بشيءٍ من المَكْرْ:

ـ متى تُغْمضينَ عيْنيْك؛ يختفي الضوْءُ والإبصار.

فكان بينهُما كلامٌ مُنزّلٌ في آذان؛ وكلامٌ يحوي كلاما؛ حتّى جاءت ـ من المحادثة الثنائية ـ لذّةٌ لا مثيل لها؛ إذْ شعر بها الرجُلُ "أسْكرّايْ" تصعدُ من أسفل بدنِه كالعسل، وتفيضُ من عينيْه مثل ماء زلال؛ فصرخ من هول اللذة الخارجة من عيْنيْه:

ـ أ لا لا فيضَ إلاّ هذا الفيض!

وأضاف:

ـ ... لقدْ صِرْتُ بها أرى.

فصاحتْ:

ـ طوالَ مُراهقتي حلمْتُ بمثل هذه المعجزة.

و"باتا الليلَ مُتعانقينْ"...

و"مُباركة" ما زالتْ في عُريِها النابض، لكنّه ما عادَ قادِراً على سماع دقاتِ قلبِها المتسرعة، وهديرِ دمها، وهَسيسِ أحلامها.
بيدَ أنّه تساءل لمّا رآها:"أ هكذا تكونُ المرأةُ التي تُجمِّلُ لنا الخيانة؟"
وشرع يبكي.
وشرعتْ تبكي.
ـ إذْ أبكي أنا، فمن فرحة حلول الإبصار في عينيَّ، ومن إمكانية رؤية الصورة التي عليها زوجتي لأوّل مرّة في حياتي، فماذا يبكيك وأنت مُبصرةٌ ناطقة.
فشدّتْ بقوّة على حنجرتِها لأجل تحرير كلامٍ رأتْ من الضروري أنَ تقولَه ل"أسْكَرّايْ".
أحبّتْ لو يسْمعُها تقول لَه:
ـ أحبُّك... أحبُّك... أحبُّك...
لكنّ الكلامَ انحبسَ في حبالِها الصوتية، مثل سمكٍ مُتشابه في حبكة مهجورة.
فقال:
ـ لا تخافي يا "مُباركة"، سأجعلُك تستعيدين القدرة على الكلام.
ففعل معها مثل ما فعل في السوق، ولكنّها ضلّتْ بكماء.
فشرع يبكي للمرّة الثانية وقال:
ـ أعتقدُ أنّ النبوّة فارقتني.
ثمَّ نهضَّ ليُلقيَ عليْها مئْزَرَها، وقال لها:
ـ اذهبي لحالك أيتُها المرأة التي أحبّ!
وخرجَ إلى أهَلِه ليتركَها على وشك الانفجار من فرطِ ضغطِ الكلام المنحصر في جميع أرجاء جسدها.
صباحاً؛ وهَو في طريقه إلى البيت ، رأى نوارس وسلطعونات وعقارب وعناكب وسحالي ونمال وطيورَ دُوري وغرباناً وأشجار أركان وعرعر وزيتون... رآها تنظرُ إليهِ في صمتٍ بعيونٍ حزينة.
فقالتْ له بومٌ معروفٌ عنها عدمُ الظهور إلاّ وسط الليل:
ـ ما فعلتَ لا يليقُ بالأنبياء.
ولمّا سارعَ إلى ساقِ الشجرة التي عليها البومة ليبرّر فْعْلتَه؛ طارتْ الشجرةُ، وقالتْ له البوم:
ـ أخافُ أن تكون اقترفتَ ذنباً لا يُغتفر... أ تخونُ زوجتَك؟
وبقيَ هو في موقع الشجرة الطائرة ليرى سائر المخلوقات العائشة تحتَها، تحتمي من الخيانة بالهروب إلى الآفاق السفلية للتربة.
فجلس يبكي للمرّة الثالثة، وقال لنفسِه:

ـ ربّاهُ، ماذا فعلتُ؟... ربّاهُ، لماذا جعلْتَني أضعُفُ أمام الحبّ؟...ربّاهُ، لماذا جعلْتَ الخطيئةَ في؟...
ولمْ يجئْهُ جواب.
فسارَ يتعثرُ بذنبه على أرضٍ منبسطة خالية من أسباب التعثر.
كيف لا يتعثرُ النَبيّ على أرضٍ هجرتْها التضاريسُ والحَجارةُ والأشواكُ ؟
ودّت الأرضُ لو تختفي، ليجرّبَ ذلك "النبيّ" السيْرَ في الخواء.
"أ لاَ ما أصْعبَ مواقفَ المخلوقات الصامتة!" قال "أسْكرّايْ" لنفسِه. فقالتْ لهُ هذه الأخيرةُ:
ـ أ لا ما أخونَكْ! ومنذ اللحظة لا تحدثني في أيِّ أمر!
فجثا يبكي للمرّة الرابعة وقال للسماء:
ـ أرجو مغفرتك.
فقالتْ له سحابة مكفهرّة:
ـ ليس لك من غافر سوى زوجتك.
وتبدّدتْ.
عند بلوغه البلدة بين تعثرٍ وآخر، شعر بأنّ الأهالي لا يعيرونَه اهتماماً، وكأنّه غير كائن. حتَى إذا ما بلغ بيتَه، رأى الحاكمَ سيدي "عْلي" و الفقيهَ سيدي "أحمد بن محمد" وأصحابَه "أموسى" و"باسّو" وجنديين متجهمَيْن وجواديْن.
عندما اقترب، قال له الحاكم:
ـ هذان جنديان من جنود الحاكم الأكبر للمنطقة الشمالية، وهما هنا من أجلِك.
فقال "أسْكَرّايْ":
ـ دعوني ألقي نظرةً على زوجتي!
فرآها لأول مرّة في حياته فاتنة في قفطان سُندُسي بسيط. رآها تفتنُ بجمالِها الموحّد، وبدل أن يقولَ لها: "لقد صرتُ أُبْصِر"، قال:
ـ أتساءلُ من أيْنَ يأتينا الإحساسَ بالجمال؟ فقالتْ:
ـ سامحني يا زوجي العزيز، فلا أنا، ولا أخي الحاكم، قادران على إنقاذك من طلب الحاكم الأكبر. كلُّ ما في مقدوري هو أن أنصحَكَ بعدم التهوُّر لكيْ ترجع لنا بسلاَم.
فجثا، وبكي للمرّة الخامسة.
"أ بعدَ كلّ هذا الحبّ، لا استحقُّ العقاب؟" قال "أسْكرّايْ" لنفسه.
وهو بين عدّة ذكريات تتجاذبه:
ـ ذكراه مع "يامْنة" وهما يرنوان ـ في العشق ـ إلى حوتٍ عظيم أطلّ عليهما من المحيط الأطلسي.

ـ ذكراه مع "مباركة" في بيت أخ "يامْنة" وهما في "الحبّ".
ـ ذكراه مع الجداجد، القطط ، "العمى"، و"الإبصار"...
فشدَّ على صدره بكلتيْ يديْه، وصرخ:
ـ من ذا الذي أوحى لي بأنّني نبيّ؟ ... ما أنا إلاّ بشر خطّاء! ...
فانطفأت النيران في كلّ موقد، وغابت الشمسُ، وغاب القمر وبقي هو.

7

كان لزاماً على أهل البلدة أن يخرجواْ جميعاً ليشاهدواْ (نبيَّهُم) مكبّلَ اليديْن بحبلٍ مربوطٍ إلى سرج أحد الجنديين؛ وهو يسير خلفهما مطأطِأً، ومَكْسُواً بالذلّ من كلِّ جهة.
كان عليهم أن يتحمّلواْ رؤيةَ الدمع المحصور في عينيْ حاكِمِهم الذي ظهر بلا قوّة.
... أن يرواْ (أميرتَهم) "يامْنة" غارقة في الحزن.
تمنّواْ لو تظهرُ ملايينُ القِطَط والجداجد لإنقاذهم من ذل التخلّي عن أحدِ أبنائهم الخارقين.
وتساءلواْ في أنفسهم:[أينْ هي تلك القوى، والكوارث التي طالما ساندتْ "أسْكرّايْ"؟].
"أسْكرّايْ" خانَ عِشَقَهُ ل"يامْنة"، وخانَ نُبُوّتَه المفترضة، وتصرّف كرجلٍ لا يُعوّلُ عليه، وسرق المتعةَ الجسَدية من امرأة ما تجاوزتْ مُراهقتَها؛ ولمْ يعترف بخطيئته؛ لا لنفسِه، ولا للمرأة التي يعشقُ حدَّ الوجود.
فخرجَ صديقُه (الجديد) "باسّو" من بين الأهالي المفجوعين، شاهراً خِنجرَه، في حركة فدائية حمقاء، ولكنّ الجنديّ الذي في الخلف، التفتَ إليه من على صَهوة جوادِه، وأرْدَاهُ بَطلقة نارية؛ ثمَّ استمرَّ يسيرُ في هدوء، وكأنّه لم يقتلْ رجُلاً للتوّ.
الوضعُ مهينٌ حقيقةً؛ لكنّ الحاكم سيدي "عْلي" كان قدْ أشار إلى رجالِه بعدم التدخُّل، وبلزوم الاصطبار؛ "حقناً للدماء".

رأى الرجلُ "أسْكَرّايْ" ما جرى بعيْنَيْنِ تمنّاهُما مُسملتيْن؛ ثم نظر إلى السماء، فرآها زرقاء صافية، وما فيها طيْرٌ باستثناء لقلق مهاجر لوحده... إلى حيث السكينة.
تمنّى لو يعودُ إلى "عَماه"؛ إلى "نبوّته"؛ إلى "بَصره" الباطني.
"...ولكنّني أذنبتُ."- قال لنفسِه -"... منَ حقِّ الربّ أنْ يُعاقبَني."

عند خُرُوجه من البلدة، لم يطلبْ الغفران؛ بل طلب العقاب.
فكان مبتدأُ "العقاب" خلُوُ الطريق من تلك الحيواناتَ الصغيرة التي - طالَما - ساندتْه؛ إحساسُه بأنّهُ مَثل طفلٍ متخلّى عنه في صحراء ثلجية؛ مثل ملاكٍ جُرِّدَ من جناحيْه وأعيدَتْ إليه أعضاؤه التناسُلية، في شبه جنّة على الأرض، ملؤها "الشهوة".
بلْ إنَّ أوّل "العقاب"، كان في بيت الخيانة، عندما سلّطَ عليه الربُّ نقمةَ "الإبصار" نقيضاً لنعمة "السماع"، "الإبصار" كبوّابة مشرعة على عوالم "الرَغبة"؛ ذلك لأنَّ "الإبصارَ" فتّانٌ؛ والعينَ الرّائية مدخلٌ للافتتان، فالغواية، فالخطيئة.
- أيّتُها السماء المتعالية عجِّلي بالعِقاب، فأنَا مذنبٌ، ومن واجِبِك أن تُعاقبني! قال لها في خشوع.
ومع ذلك ظلّت السماءُ صامتة.
أ ليس من حقِّه أن تخاطبَهُ السماءُ، وتقول له بنبرة "قَضائية":"...لقد اعترف المتّهمُ بجُرمه، وبموجب البند رقم كذا، والمتعلّق بشؤون الخيانات، وبموجب التعديل السماوي رقم كذا، الصادر في (صحيفة السماء الرسمية) عدد كذا، والمُصادَق عليه من طرف (المجلس الأعلى للرسل والأنبياء)؛ قررنا نحنُ (السماء)، إدانةَ المتهم، وأصدرنا في حقه العقوبات الآتية...
ولكنّ السماءَ لا تتكلّم هكذا.
وهو في ظلِّ الاعتقال، رأى السماء التي كانت صافية تماماً، وخالية من أيّ حيّ؛ تتلبد بالسُّحُب حتى كادت الأرضُ تظلم. ثمّ سارعت السُحُبُ تنفطِر، وتتباعد، وتتلاشى حتّى لم يبق منها سوى رسمُ لرقم"ستة".
فقال لنفسه:"هذه إشارة من السماء تعني أننا سنُعاقَبُ على ما فعلناه ستة عقوبات" (من دون احتساب العقوبتين الابتدائيتيْن).
وظلّتْ نفسُه صامتة هي الأخرى.
لمّا إن شارف بلدةَ "مباركة"، رآها واقفةً على صخرة دُلوميتْ شاحبة كئيبة، وهي تبكي؛ فتوقف لكيْ يقول لها:"سامحيني أيّتُها الطفلة المَوْءودة في البُكْم!" ؛ ولكن الجندي الذي يجرُّه، نخس جوادَه بمهماز حذائه، فقفز الجواد جرياً مسافة نصف فرسخ كانت كافية لتمزيق ملابس وجلد "أسْكرّايْ".
فقال الجندي الأول لصاحبه:

ـ حاذر أن تقتُلَه، ف"الأعرجُ" يريدُه حيّا.
فنزلا معاً ليُسعفانه بقليل من الماء، ثم أوقفاه، ثم تابعا السير.
وما قال شيئاً؛ فانفجرت شمسٌ مثل النار المقرّبة من جلدِ المحموم، وما كان في مستطاع الجنديين أن يسعفانه هذه المرّة.
ـ أ لا ترى أن هذه النار قد تقتله؟ قال واحد.
ـ أ لا ترى أننا إن أسعفناه بما تبقى لينا من ماء، قد نموت؟ قال الثاني.
ـ وما العمل إذن؟
ـ أ ليس يدّعي النبوة؛ فليسعفه إلاهُه إذن!
وما إن بلغوا الفجَّ/بوّابة مُراكش، حتى سارعتِ السماءُ إلى تنزيل أكوامٍ من البَرَد، ثم نُدَفٍ من الثلج.
فقالً "أسْكرّاي" متذمرا:"أ بعدَ النار يأتيني الزمهرير؟"
فقال له الجنديّ الذي يجرجره:
ـ اصمت أيّها الكافر!
ثمّ جاءه الجوع في صورةِ سمكة مشوية على نار المحبّة؛ شبيهة بالسمك الذي اعتاد صديقُه سيدي "أموسى" تقديمَه له، في أثناء الليالي الشاطئية. عدا أن السمكة المحلوم بها، كان لها أرجل. وهو يحاول الإمساك بها، فرّتْ إلى بعيد، تاركةً وراءَها نُدَفاً من اللذة.
آنذاك قالتْ له معدتُه:
ـ لنْ أغفر لك ما جَوّعتني.
فردَّ عليها بغضب:
ـ أ لا تشبعين من الأكل أيتُها العَدُوَّة؟
فقالت له:
ـ بحقِّ الرب، ما أنت نبيّ... أ لا تعرف أنني ما خُلقتُ إلا للطعام.
فردَّ:
ـ بحقّ الربّ الذي لن تعرفيه أبداً؛ سأجوّعُك حتى تؤمنين بأن "الأكل بدون حق"؛ خطيئة.
فصمتتْ... من الخوف.
فحظر العطش مثل كائن انتهازي، وقال له:
ـ أمّا أنا فلن تجد حيلة لإسكاتي... هاتِ ماءَ الحياة، أو النبيذ، أو اللبن؛ وإن لم تقتدِر؛ هات لي قليلا من الماء!
فلم يَردَّ عليه.

لكن أحد الجنديين قال:
ـ قد يموت هذا العدو من العطش.
ـ وما شأنُنا نحن؟ أ لمْ يقل "الأعرج" بأن نأتيه به وهو في حالة ضُعف؟
ـ ولكنّني أراه يحتضر.
ـ... إذا كان نبيّا حقيقياً فسوف يسعِفُه ربُّه.
ـ ولكنّني أراه مُجرّد رجل خائر القوىَ...

ـ هل سنتركُ نبيَّنا "أسْكرّايْ" من دون محاولة إنقاذه، وأخانا "باسّو" من دون الانتقام له؟ قال سيدي "أيّوب".
ـ لنفعل شيئاً أيّها الحاكم! قال سيدي "أموسى".
ـ لا يُمكن فعل أيّ شيء سوى أن ندعو له بالنجاة... إنّ الحاكم الأكبر قويّ، وله جيشٌ كبير وعتاد حربي حديث؛ بندقيات، ومدافع...قال الحاكم سيدي "عْلي".
ـ فلنذهب إليه ونطلب منه أن يغفر لابننا "أسْكرّايْ".
ـ أخاف أن لا يتفهّم الأمر، فيقضي علينا جميعا.
ـ أنا سأذهبُ إليه، وسأطلبُ منه أن يعفوَ على زوجي. قالت "يامْنة".
ـ إن كان لا بدَّ من الذهاب إلى الحاكم الأكبر، فسأذهبُ إليه بمفردي، وفي يدي بعض الهدايا. قال الحاكم.
بهذا الكلام، سارع الأهالي إلى جمع ما لديْهِم من حليّ ثمينة، وجواهر، ونقود ذهبية وفضّية، وسيوف مرصّعة، وخيول جيِّدة...
ـ صار من المستحيل أن أذهب بمفردي بهذه الحمولة، فقطّاع الطرق تغلغلوا في كلّ شعبة وفج... سأذهبُ في قافلة جند، حتى مشراف مدينة مراكش...

وهم في الفجّ، المؤدّي إلى الاتِّساع المُفضي إلى مراكش، شارف "أسْكرّايْ" على الموت. وزيادة في التأليم؛ دخلتْ حصاةٌ صغيرة إلى حذائه؛ فكان الألَمُ المُحدثُ، بالقدر الذي جعله يصرخ في وجه السماء:
ـ بحق الرب، لماذا تقسين عليَّ إلى هذا الحد؟
ومع ذلك، ظلّت صامتة.
بيد أنه رأى على أشجار العصْفية؛ صفوفاً من الغربان المُتجهِّمة، حاملةً في مناقيرها ثمارها المُفصّصة... في تعاطف، وغضب صامت.
آنذاك رأى بَصَرَه يختفي؛ فنظر إلى السماء، وقال:
ـ أشكرُك يا ربّ!
ـ لا خيانة بعد اليوم!

فقال لها:
- بعد أن استعدتُ نعمة "العماء"؛ لن أخون أبدا.
بهذا القول؛ خرجتْ الحصاة من حذائه، وسارع العطش ليرويه من مائه الخاص، وبادر الجوع لإطعامه من قوته الشخصي، والبردُ ينسابُ عليه دافئا مثل بلسم، والحرُّ يستحيلُ لأجلهِ إلى شيءٍ كالحُبّ، والجروحُ تلتئمُ مُجدّدةً جلَدَه القديم.
لكنّ ما أسعدَه كثيراً؛ هو امتلاءُ طريق الأسْر، بآلاف الحيوانات الصغيرة، ومنها؛ الجداجد، والقِطط، والعناكب، والجرذان، والضّباب، والفراشات...
رآها بسمعِه الجديد، تنظر إليه في عطفٍ وصمت؛ وتنظر إلى الجنديين بعيون يملأها الغضب.
فقال لها:
- لا تيأسي أيتها الكائنات الرائعة، فالربُّ معنا!
وهُمْ في الفجّ، خرجتْ عليهم عُصبةٌ من اللصوص المُلَثمين، بالخيل والكلاب الضارية والسيوف والبنادق، فدارت بينهم وبين الجنديينْ معركة وجيزة، انتهتْ بمقتلِهما. فتقدّم رئيسُ العُصْبة من النبيّ:
- من أنتَ ولماذا أنتَ مُعتقل؟
- اسمي"أسْكرّايْ"، وهذان... الجنديان كانا يقودانني إلى قاضي مراكش بسبب ذنبٍ اقترفتُه.
- وأيُّ ذنب اقترفته؟ هل قتلت؟... سرقت؟... تمرّدت؟...
- لم أفعل أيّ شيءٍ من هذا القبيل.
- ماذا فعلتَ إذن؟
- كل ما أعرف هو أنني خنتُ الأمانة.
فضحك الرئيس وجماعتُه، وقال:
- طيِّبْ! سننقذك...
- كيف؟
- ستنضمُّ إلى عُصْبتي فتكون من رجالي... هيّا! فُكّواْ وِثاقه!
وهم يحررونه من الحِبال؛ قال:
- لا أستطيع.
- إن لم تفعل، سأبيعُك مثل عبد... أو أقتلك.
- قلتُ لك لا أستطيع وذلك لسببيْن؛ أولُهما أنّني أعمى، والثاني لأنني أذنبتُ في حق أعز الناس، ولا بُدَّ لي من العقاب.
- أعمى؟... هذا الرجلُ عديمُ الفائدة... اقتلوه!

ـ أرجوكَ أيُها الرجل؛ إن تحفظ لي حياتي حتى أنال العقاب الذي أستحق؛ يحفظُ لك الربُّ حياتَك، وحياة رجالك.
ـ هل تسخر منّي؟ كيف يمكنُ لك أن تهدّدَني وأنتَ أعمى، ومذنب، ومكبّل اليدين؟... هيّا! اقتلوه!
فصوّبوا بنادقهم صوبَه... فجأة؛ جاءتْ تلك الغربان، وراحتْ تلقي على أفرادَ العُصبة تلك الثمار؛ فكانتْ عند سقوطها عليهم، تنفجر مثل قنابل "رُمّانية"، حتى لم يبق من عُصبة اللصوص، لصٌّ على قَيد الحياة؛ ثم حلّقت عاليا واختفت.
لحظتئذ، ألقى النبيّ جثة كل جندي على جَواد، وسار يسوق الجوادين باتجاه مُراكش.
و"يامْنةً" تبكي حظها السيئ، و"مُباركة" تبكي ـ هي الأخرى ـ حظها.

بعد يوم آخر من "مسيرة الاعتقال"، بلغ "أسْكرّايْ" بوّابةَ مدينة مرّاكش.
كانت الرؤوسُ التسعة المعلّقة ما زالتْ هنا؛ بيد أنّ الجُملة (هذا مصيرهم)، استحالتْ إلى (هذا... هم)؛ وذلك ليس بفعلِ "ماسح بشري"؛ وإنّما بفعل أيادي الطبيعة، وكأنّ هذه الأخيرة، لا تتحمّل كلمة (مَصير) المكتوبة بالدم؛ لذا محتها من قاموس الوجود؛ بالرياح والأمطار.
والناسُ يخلون له السبيل، ويُوجِّهونه إلي قصر القاضي "الأعرج" بإشارات خفية تارة؛ وواضحة تارةً أخرى، إلى أن بلغَه.
فوجد "الأعرجَ" ورجالَه أمام بوّابة القصر ينتظرونه. توقّف الجوادان أمام القاضي وكأنّهما يعرفانه، فتقدّم نحو "أسْكرّايْ" خطوتين لا أكثر، وصفعه:
ـ هل تقتل جنودَنا، وتأتي برجليك إلينا؟... بحق الرّب أنت أحمق... إيتوني به فوْراً!
مثلَ أمامَه، و"الأعرجُ" جالسٌ على كرسيٍّ عالٍ من عود العرعر المطليّ بعضُه بماء الفضّة، والمرصّع بعضُه بالحجارة الكريمة، وحوله أصصٌ كبيرة فيها الياسمين والليلك والورد، وفراشات زاهية الألوان، طيّارة من زهرة إلى أخرى في ما يشبه الرقص.
فقال لرجاله المسلحين بالرماح والسيوف والعصي:
ـ هيا انزعواْ عنه عباءَته، وأسقطواْ عن رأسه "رَزّتَه"!
فكان أن رأواْ أذنيه "الوطواطيتيْن"، وانفجرَواْ ضحكاً.
ـ قل؛ هل تقدر على إحياء الموتي، أو تحويل عصا إلى ثعبان، أو السير على الماء، أو الخروج من النار سالما، أو تشفي المرضى، أو تعلم الغيب، أو تتحكم في العفاريت؟
ـ مثل هذا الكلام لا يصدقه العقل.
ـ وماذا عليّ أن أصدق؟ هل عليّ أن أصدق أنك تكلّمت في المهد، وأنّك تتحكّم في الحيوان، وتُحدث الكوارث لخصومِك، وتبرأ من الرصاص والنِّبال، وتختفي أمام أعين الناس؟...

- أجل.
- أنتَ وقح ومصيرك أن تتعذّب في السجن، إلا أن تتوب عن ترهاتك.
- افعل ما تشاء أيها القاضي، ولكنني لا أكذب.
- إذا كنتَ نبيّاً كما تدّعي، فأين هو كتابُك؟
- ليس لي كتابٌ أيُّها القاضي؛ فأنا أمّي.
- أحدث معجزة إذن!
- أنا لا أحدث المعجزات.
- هذا اعترافٌ منك بأنّك مجرّد دجّال.
- أنا لستُ دجّالا.
تدمّر "الأعرج" من جرأة النبيّ وعزمه، فقال لجنده:
- ألقوهُ في السجن مع العقارب والثعابين، فإن نجَا من سُمومها في أثناء ثلاثة أيّام؛ أدْخلواْ عليه أسداً جائعا، فإن نجا من براثينه وأنيابه في خلَال يوم وليلة؛ أعيدوه إليَّ!
و"أسْكرّايْ" ينظر بسمعه إلى رِجْل القاضي؛ رأى فيها شظية حديدية مُستعرضة، هي سبب تخشّبِ الرِّجل، فدار بخلده أن يقترح على القاضي إجراءَ جراحة بسيطة لكي يستعيدَ رِجلَه.
ونظر إلى عينه المبْيضّة، فرآها عامرة بحُبيبات مثل الزلال المُسخّن؛ ويكفي شفطُها لكي يسترجع القاضي عينَه؛ ولكنّه رأى أنّ تخليصَ القاضي من علاّته؛ سيجلبُ لهُ أمرين لا يرغبُ فيهما؛ الأول؛ هو أنّ القاضي سيتخلّى عن معاقبتِه؛ والثانَي هو أنّ "النبوّة" ستثبتُ عليه، وسيصير في وضع أكثر إدانةً.
لذا، قال له:
- طيّب أيّها القاضي؛ أودعني سِجنَك! عسى أن أغفر لنفسي.
فجأة، احمرّت العينُ البيضاء، وصَاح "الأعرج":
- أَخْرِجُوا عنّي هذا المسخ!
فالقواْ به في "منْسِية" تشبهُ الجُبّ، ظلماء وعامرة بهياكل عظمية بشرية، وعلى اتصال بسرداب عبر بوابة حديدية؛ ثمَّ ألْقواْ عليه سبعة ألف من العقارب السوداء الشديدة السُمّية، وسبعمائة من أفاعي الكوبرا الباصقة للسمّ؛ ثم أغلقوا فوهة "المنسية" بسُدادة حديدية لا يقدر على زحزحتِها أقوى الرجال؛ وانصرفواْ تاركينه إلى النسيَان.

- ماذا تقول يا ابننا الرضي الذي ما تأخرّ عن ندائنا ساعة الحرب؟ قال الحاكم الأكبر لسيدي "عْلي".
- جئنا إلى مقامكم الكريم لكي تنقذوا حياة أحد أبنائنا.

ـ من هو وممَّ تريدني أن أنقذ حياتَه؟
ـ اسمه "أسْكرّاي"، وهو الآن في أحد سجون قاضيكم "الأعرج"، وأخشى أن يكون قد حكم عليه بالإعدام.
ـ تمهّل أيُّها الرجل؛ فأنا من ينظر في الأحكام بالإعدام، والرجل الذي جئتَ تستنقذني حياتَه، سبق أن سمعتُ بعضَ خبره؛ أ ليسُ هو من يدّعي النبوّة في أقاليمِنا الجنوبية؟
أطرق سيدي"عْلي" لحظةً وقال:
ـ ليسمح لي الحاكم الأكبر؛ "أسْكرّايْ" لا يدّعي النبوّة، وإنّما هو مثل نبي، ولقد عشنا معه أحداثاً لا تصدّق، ومع ذلك لم يأمر بتغيير كتاب أو شعائر، وما فكّر ـ ولو مرّة ـ في تغيير الناس على معتقداتهم، أو تأليبهم ضدّ هذا أو ذاك؛ وهو صهري ورجلٌ طيّب...
ـ سمعتُ أن خصمي في الجنوب سمع به، وأرادَه لنفسِه سنداً وقوّة.
ـ سيدي؛ أقسم أنني لم أسمع بهذا الأمر.
ـ هل تعتقد أن هذا المسمّى "أسكرّايْ" أهلٌ لكيْ يكون واحداً من رجالي؟
"سؤال محرج؛ فإمّا أن أجيب ب"لا"، فيكون الموتُ مصير "أسْكرّايْ"؛ أو أجيب ب"أجل"، فيعيش وتكون له عليَّ سُلطة" قال سيدي "عْلي" في نفسه.
ـ ماذا هناك؟... لماذا تأخرت عن الردّ؟
ـ لاشيء أيها الحاكم الجليل... أجل... أجل... سيكون من رجالك، فانظر في ما ترى.
ـ أرى أنّني سأنقذ حياتَه.
ـ شكراً جزيلا لجلالتكم؛... لديَّ طلبٌ أخير.
ـ وما هو؟
ـ أرجو أن تقبلوا بعض الهدايا عربونا من بلدتنا على ولائها الدائم لكم.
ـ قبلنا هداياكم؛ والآن انصرف إلى شؤونك!

عند سقوطها؛ تحوّلت العقارب السامة إلى فراشات مضيئة، وثعابين الكوبرا إلى عصيٍّ جعل منها النبيّ سريراً.
والأسدُ المجوّعُ، افترش له مثل طنفسة دافئة؛ إذاك انبثقتْ عينٌ مائية عذبة من جدار "المنسية"، وفي ركن منها؛ تكوّمتْ الفراشات لتُشكِّل ناراً؛ والثعابين لتشكّلَ طعاما.
عندما بلغ الخبرُ "الأعرجَ"؛ استحضر "أسْكرايْ" إلى مجلسٍ "مغلق" في بستانه؛ ولم يكن معه سوى رئيس الشرطة، ورئيس التجار، وعبدٌ مارد بعصا ضخمة، وفراشات سوداء متنقِّلة ما بين أزهار أصصه، وحذاءيه، ويديْه المشبعتين بالملح. فقال:
ـ أعتقدُ أنّك سحّار؛ وإنّني سأقتُلك اللحظة.
ـ أرجوك أيّها القاضي؛ لا تقتلني! قال النبيّ.

ـ ها أنتَ تخاف من الموت كما جميع الناس...
ـ بل إنّي أخافُ عليك.
ـ هيّا أيّها المارد؛ اقتله هذا المسخ لأجل أن نستريح منه!
فما إن تقدّم الماردُ خطوة حتى صاح النبيّ:
ـ رجاءً لا تفعل؛ فأنا قادر على شفاء عينك البيضاء ورجلك المتخشبة!
تردّد "الأعرج" لحظة، ثم قال:
ـ كيف تقدر على شفائي؟
فأخبره.
وبدل أن يمتنَّ له، خاف أن يعرفَ منه الحاكم الأكبر القصّة الحقيقية لتخشب رجله.
في وقت مضى، كان الحاكم الأكبر قد أرسله للتفاوض مع حاكم برتغالي في البلدة التي سمّاها البرتغال ب"فونتي"، في خليج المنطقة الجنوبية المطلة على المحيط الأطلسي.
صادف ذلك، هجوم حاكم المنطقة الجنوبية، وتفجير مستودع البارود، وإصابة "الأعرج" بشظية حديدية في رجله، في الوقت الذي كان يعلن ولاءَه للحاكم البرتغالي.
من هذه الحقيقة الخطيرة، خاف "الأعرج"؛ ولهذا أمر خادمَه بقتل النبيّ.
***
من عند الحاكم الأكبر، خرج الحاكم سيدي "عْلي" على جواد، وكلّه حيرة وسؤال، وشقَّ طريقه إلى أهلِه وهو مليء بنوع من الغضب...
"بحق الربّ، لوَ اعترض طريقي ألف لصّ ولصّ، لقتلتُهم جميعا" قال في نفسِه.
وقال الحاكم الأكبر لصدر الحكام والوزراء:
ـ آتوني بهذا الشخص المُسمّى " أسْكرّاي"
وقالتْ "يامْنة" لأخيها سيدي "أموسى":
ـ ما كان علينا ترك أحباءنا للهلاك!
وقال "السرّاج" لأبنته البكماء:
ـ ماذا يُبكيك أيّتُها البَنتُ الطيّبة؟
***
في الحين؛ تحوّلت الفراشات إلى عقارب طائرة تلسع القاضي في سائر جسده؛ وتحوّلت عصا المارد إلى حيّة عظيمة، خنقته حدَّ الموت. وظهرتْ جرذان ضخمةَ بقواطع مريبة، نطّت، وعضّتْ كل من كان في مجلس "الأعرج"؛ إلا أنّ الرئيسان استطاعا النجاة.

8

كالنار في الهشيم، انتشر في الناسِ خبرُ مقتل القاضي "الأعرج"؛ فخرجواْ إلى الشوارع حاملين أعلاماً حمراء وسوداء، وجماجم قتلاهم على رؤوس القصب، وهم يهتفون باسم "أسْكرّايْ"، ويردِّدون شعارات من قبيل:[القضاءُ كلُّ شَيْ... و"الأعرجُ" و لا شَيْ.] و[يا حاكم البلاد؛ أنتَ من العادَلين؛ فلا تجعل أيَّ جلاّد؛ على المال والموازين.]...
فخرجت الشرطة بالبنادق، والنبال، والهراوات، والكلاب المجوّعَة، وقوارير مكورة صغيرة، وعلى أوجهها، أقنعةُ البأس والصرامة.
شاهد الناسُ بينهم أَحدُ الشعراء الشعبيين، فازدادواْ حماسةً، لعلمهم بأنَّ ما يقومون به؛ مظاهرة شعبية عظيمة سيخلّدُها لهم الشعر، وسيبلغ خبرُها الحاكمَ الأكبر في حلّة ترتضيها أذنُه قبل قلبه.
وانفتحت بوابة دار القَاضي، ليخرج عبرها جنودُ ركباناً وراجلين وهم يقودون "أسْكرايْ" في قفص خشبي على عربة، إلى إقامة الحاكم الأكبر.
فخرجت الجماهير عن عقلها وهاجتْ، وشرعتْ تقذف رجال الشرطة، والجند، بالحجارة وتصرخ:["أسْكرّايْ" حبيبُنَا؛ و"الأعرج" عدوُّنا.]
فكان أول ما قامت به الشرطة لتفريق المتظاهرين؛ هو رشقهم بتلك القوارير التي بمجرّد أن تلمسهم، أو تسقط أرضاً، ينبعث منها غبار الفلفل الحار. وكان بعض المتظاهرين يلتقط القارورة الذي لم تنكسر، ويرشق بها الشرطة.
فأطلقتْ عليهم الكلاب المجوّعة لأجل أن تنهش أجسادَهم... هباءً؛ ذلك لأنّ بعض الصعاليك رأوْها فرصةً لأكل "لحم دار المخزن"، فعضّوها بدورهم، واقتادوها إلى جحورهم لأكلِها، نكايةً بالظلم والحرمان الذين يعيشونه.

ومن ثمَّ اختلطت الهراوات بالرصاص، والنبال بالخناجر... إلى أن أتى الجيش بكل ما أوتيَ من عتاد خَفيف وثقيل وتصميم على التقتيل؛ لتنتهي المظاهرةُ بعشرات القتلى، ومئات الجرحى والمعتقلين.

في ساحة قصره، كان أوّل ما سأل عنه الحاكم الأكبر، رئيسَ الشرطة هو:(كيف حدث أنْ خرج الناسُ إلى الشوارع متظاهرين؟)؛ فأجابهُ بشيءٍ من التلعثم:

- مولاي. خرجواْ لعلمهم بمقتل قاضيكم "الأعرج".

- "الأعرج" قُتِل؟ ومن قتله؟ هل همْ المعارضون؟

- لا يا مولاي. أخبرني بعض خدم القاضي أنّهم شاهدوه يأمر خادمَه "عبد الجبار" بقتل ذلك الرجل "أسْكرّايْ"، وقبل أن يفعل، رأوا فراشات تتحوّل إلىَ عقارب طائرة، وتلسع القاضي حدَّ الموت، والعصا التي كان يمسك بها الخادمُ، تتحوّل إلى أفعى ضخمة وتهصره إلى أن مات هو الآخر.

- "أسْكرّاي"، "أسْكرّايْ"؛ صرتُ أسمعُ كثيراً عن هذا الرجل؛ لكن، ما علاقة الناس به؟

- يعتقدون أنّه ذو كرامات، وأنه جاء لإنقاذهم...

- ... إنقاذهم مماذا؟

- ...من ظلم "الأعرج" لهم... هذا ما يقولون يا مولاي.

- اَتوني فوراً بهذا ال"أسْكرّايْ"! أريدُ التحدث إليه على انفراد، وأطلق سراح جميع المعتقلين!

- حاضر يا مولايْ.

وهو في طريقه إلى مكتبِه الخاص، صرخ الحاكم الأكبر:

- أيُها الصدر الأعظم، التحق بي!

وجلسَ إلى مكتبه المصنّع كلُّه من خشب الآبنوس، والمطلية جنباتُه بماء الذهب، وقال له:

- أريدُك أن تقدّم فدية لكل أسرة لها قتيل في مظاهرة اليوم، وأن تسهر على استشفاء كل جريح وتعويضه عن جراحه.

- سمعاً وطاعة يا مولاي. قال الصدر الأعظم وهو ينحني إجلالا للحاكم الأكبر.

- وأريدُك أن تنشر هذا الخبر في الناس؛ (إذا كانت معاناتهم بسبب القاضي "الأعرج"، فإننا سنعيِّنُ من هو أحسن منه على رأس القضاء؛ فليطمئنّواْ).

- ومن هو هذا القاضي الجديدُ يا مولايْ؟

- إنّه رجلٌ عليم، متواضع، ونزيه.

- ما اسمُه يا مولاي، ومن أيِّ بلد هو؟

- لا تسأل عن بلد "القضاء" النزيه أيُّها الصدر الأعظم! ... إنّه القاضي الشاب سيدي "عبد الحيّ بن العَرْبي".
- أ ليس هو ذلك الشخص الذي اقترحتَ عليه رئاسةَ القضاء فرفض؟
- هو بعينِه.
- ولكنّه سَيرفضُ عرضكم يا مولاي.
- لا! لن يرفض في هذه المرّة. هيّا. نفّذْ ما أُمِرتَ به.
- اعتبر أمْرَكُم مقضِياً يا مولايْ.
بعد أن انصرف الصدرُ الأعظم، قام الحاكمُ الأكبر من مقعده، وراحَ يتجوّلُ في مكتبِه الفسيح، ويداه خلف ظهره، ويُخاطِبُ نفسَه:" هل يعاني شَعبي من القضاء الجائرَ وأنا من دون علم بذلك؟... اعتقدتُ لزمن طويل بأنَّ أعدائي اثنان؛ واحدٌ قريبٌ هو قائد المعارضين، وآخر بعيدٌ، وهو حاكم المنطقة الجنوبية، صديقُ البرتغاليين، ولم أفكّر قط في أن أعدى الأعداء شديد القرب منّي... وذلك ال"أسْكرّايْ" الذي سمعتُ عن خوارقه، والذي استعطفني الحاكم سيدي "عْلي" لكيْ أنقذ حياته، ماذا يكون بالفعل؟...
فأدخلوه عليه؛ وبمجرّد أن مثل "أسْكرايْ" أمامه حتى ضربه أحد الجنود بعقب بندقيته ليجبره على الركوع؛ فقال لهم الحاكم الأكبر:
- فُكوا قيودَه واتركونا!
فكان أن بقيَ "أسْكرّايْ" في وضعية قريبة من السجود؛ ورأى الحاكم الأكبر مثل طيفٍ ضوئي تخلخلُه ريحٌ غير مرئية، وقلبٍ ينبضُ تارة في نظام، وتارة أخرى في غير نظامٍ؛ كما رأى في مستوى رأس ذلك الطيف، شرارات كهربائية تشي بتضارب أحاسيسه وأفكاره.
فدارَ الحاكمُ الأكبرُ حول النبيّ ببطءٍ وصمت ؛ ليراه مثل جُدْجُدٍ كبير له أُذُنان خُفاشيتان. فقال في نفسِه:"هذا الرجل غريبٌ حقّاً، فلا عجب أنْ تكون له بعض القدرات الخارقة!"
- انهض أيُّها الرجل! قال:
فنهض ببطء، واستقام ولم ينظر إلى الحاكم الأكبر.
- ماذا تكون أيُّها الرجل؟
- أنا مثل جميع مخلوقات الرّب.
- لكن بعض المخلوقات "شر"، وبعضها "خير".
- عذراً يا مولاي؛ لا وجود للشرّ والخير إلاّ عند البشر.
- هل هذه هي رسالتُك؟
- ليست لي أيّة رسالة يا مولاي.

- تعترف إذن بأنّك لست رسولا جديدا للرّب.
- أجل.
- أنت نبيّ إذن؟
- أجل يا مولاي.
- وكيف تُعَرِّفُ النبوّة إذن؟
- النبوّة تحرّرٌ من الماديات، وتعالٍ عن الشهوات، وبحثٌ عن الانسانية، واحترامٌ لجميع المخلوقات من أرض وسماء وماء وهواء وأحياء، وعشقٌ للرب.
- وماذا عن خوارقك؟
- لا أعرف.
- كيف لا تعرف والجميع يتحدّث عنها؟
- كل ما أعرف هو أنني لا أحدث تلك الأمور.
- قل لي إذن ماذا تريدُ؟... الشهرة... المال... السلطان؟
فردَّ "اسْكرّايْ" بأدب:
- مولاي؛ أنا لا أريد أيّ شيءٍ ممّا ذكرت.
قل لي إذن؛ لماذا أراد القاضيً "الأعرج" قتلك؟ - لأنّه تكهّن بأنني عرفتُ سرَّ تخشب رجله.
- وما هو هذا السر؟
- مولاي؛ القاضي"الأعرج" حاول خيانتكم لصالح البرتغال، وعندما هجم حاكم الجنوب على حصن الأعداء، انفجرت براميل البارود، فدخلتْ شظية حديد إلى رجله وخشّبتها.
- وكيف عرفتَ ذلك؟
- رأيتُ الشظية، و...
- وماذا؟ تكلّم!
هل يخبره بقدرتِه الخارقة على سماع الأفكار؟ لا! لن يفعل؛ فلو أخبره، لتخوّف الحاكم الأكبر من أن يسمع أفكاره الخاصّة.
.... رأيتُ الشظية، وسمعتُ أحد الناس في سوق بلدتِنا يروي قصّة خيانة القاضي "الأعرج" لك.
- قلت إنّك رأيتَ الشظية، كيف يمكن لك ذلك؟ هل بصرك ثاقب إلى هذا الحد؟
- بالعكس يا مولاي؛ فأنا أعمى.
أعمى؟ هل تسخر منّي؟ كيف لأعمى أن يبصر؟
- حاشا أن أسخر منك يا مولاي، كل ما في الأمر هو أنّ سمعي قوّي جدّاً، وبه أستشعر الأشياء.

ـ طيب! صدّقتك. صدّقتك لأنّني أعلم بوجود بعض العميان ذوي الخوارق في مصر والصين والهند؛ لكن لماذا قتلتَ "الأعرج"؟
ـ مولاي؛ أنا لم أقتل أحدا في حياتي؛ ولكن الأمور تحدث معي هكذا دوما؛ فكل من يريد إلحاق الأذى بي، تحدث له كارثة.
ـ أمرٌ لا يُصدّق.
ـ صدّقه يا مولاي، أرجوك.
ـ طيّب! هل تودُّ الاشتغال معي؟
ـ مولاي؛ أنا لا أفهم في السياسة، وأخاف إن اشتغلتُ معك، أن أتعرّض لأقبح الكوارث. وما هي؟
ـ إنها كارثة الوشاية الكاذبة من طرف الحَسدة.
ـ معك حقّ أيُها الرجل الطيّب؛ السياسة كلُّها غدر؛ لكن قل لي؛ هل تريد منّي شيئاً أحقّقه لك؟
تردّد "أسْكرّايْ" بضع دقائق، واستجمع إنسانيتة، وقال للحاكم الأكبر:
ـ مولايْ؛ لديَّ طَلَبان، الأول؛ هو أن تسمح لي بالعودة إلى أهلي؛ والثاني هو أن تعمل بنصيحة تخصُّ صحّتك.
عند هذه الكلمة، وضَع الحاكم الأكبر يدَه على صدره من دون أن يشعر، وقال:
ـ ستعود إن شاء الله إلى أهلِك سالما غانما، لكن ما أدراك بأنّني مريض؟ وهل لديك علاج؟
ـ مولاي؛ إن قلبَك، وأحاسيسك، وأفكارك مضطربة بسبب التوتر والقلق وقلّة النوم، وعلاجُك ـ في ما أرى ـ هو المشي السريع نصف ساعة كلّ صباح، والإفطارُ بخبز القمح الصلب الكامل مع كأس من مطبوخ البن وقليل من زيت الزيتون وكثير من جبن الماعز؛ وتناول نقيع "الأزير"(ندى البحر) في الخمر الأحمر مقدار كأس عند وجبة الغذاء، وشرب كأس من مطبوخ زهرة البابونج ساعتين بعد العشاء.
بهذه الحمية، ستهدأ أعصابك، وستصفو أفكارك، وتسترجع جميع قواك، وينتظم قلبك، وتنعم بحياتك.
ـ هل هذه الوصفة من نبوءاتِك؟ قال الحاكِم الأكبر بشيءٍ من المرح.
ـ لا يا مولاي؛ هذه الوصفة من تجربتي كراعٍ للغنم.
فأطلّ من نافذة مكتبه، وصاح:
ـ يا رئيس الخدم؛ ويا قائد الجيش؛ خذوا"أسْكرّايْ" إلى الحمام، وألبسوه أفخر الثياب؛ وأطعموه أفضل الطعام؛ وجهزوا له أفضل ما لدينا من خيل، وأعطوه ما يشاء من المال.
ـ هذا كثير يا مـ...

ـ قضيَ الأمرُ أيُّها الرجُلُ الطيّب.
***
وهو على صهوة جوادٍ أسود، بلباسٍ سندسي زاهٍ، و"رزّة" صفراء مطرّزة، وخنجرٍ من مجموعة أسلحة الحاكم الأكبر، وكيس مليءٍ بالنقود الذهبية؛ نظر "أسْكرّايْ" إلى الأرض المنبسطة المؤدّية إلى الفجاج، والوديان، والجبال التي عَبْرها، موطنه.
فما إن تقدّم بجواده بضعة فراسخ، حتى انفتح له بابٌ في جسم زمان شديد البطء، على مسارٍ كان مبتَدأه لافتة خرافية ناطقةَ:[مسار "الاشتياق": 000.180 فرسخاً قبل بلوغ الحبيب]؛ قالت.
لم يسأل "أسْكرّايْ" نفسه (هل يحلم أم يتوهّم) لأنّه اعتاد مثل هذه الحيثيات، ولقد سبق له أن سافر في الزمن مع حبيبته "يامْنة" وصديقيْه. بدل ذلك، بذل جهدا لتحويل المسافة الخرافية الفاصلة بينه وحبيبته، فوجدها تناهز 12 سنة.
فكان أن وطأت القدَمُ الأولى للجواد أرضَ "الاشتياق"، فانبسطتْ، وتحوّلتْ إلى صفحة قفرة لا حدود لها من رخامٍ لازوردي، والسماء اكتسبتْ لوناً أمغر، والشمسُ؛ لونَ التفاح الأخضر.
استشعر النبيّ تغيرات الزمان والمكان، ولكنّه لم يرَ الألوان؛ وتوقّف لحظة حتى يهدأ جوادُه من هول التغيير؛ ثم جعله يتقدّم خطوة، فخطوتين، فانزلق على صفحة الرخام الملساء ودار بصاحبه دورة قبل أن يباعد أرجله ويتوقف في وضعية توازن هش؛ ومع ذلك، شجعه النبيّ على السير ببطء وحذر.
شيئاً فشيئا، تعلّم الجوادُ كيف يمشي على الأرض الملساء، وكان صدى خطواته يأتي النبيَّ من مكان بعيدٍ غير محدّد؛ فتأكّد له أنّه يسير في طريق لم يسبق له أن سار في مثلها، طريق ليس لها أبعادٌ هندسية من عرض وطول، بل أبعادُها زمنية، صوتية، ضوئية، ونفسية.
طول طريق "الاشتياق" اثنتا عشرة سنة من "الارتقاب"، وعرضُها اثنتا عشرة فرسخاً من الصمت، وسُمْكُها ألوانٌ عجيبة غير ألوان قوس قزح، ومخاطرُها التقلّبات النفسية.
"كيف سأجدُ المرأة التي عشقتُ؛ وكيف ستكون المرأة التي أحببتُ؟ وهل من غفران بعد العقاب؟ وكمْ قضّيتُ عند سيدِنا الحاكم الأكبر؟ وهل سيتركني لحالي فأمتهن صيد السمك؟ وكيف سيستقبلني حاكم بلدتنا سيدي "علْي"؟...
كان النبيّ يقول لنفسه... في تلك الطريق.
فشرع الجوادُ يركضُ من سريع إلى أسرع، إلى أن بلغ السرعة الخيالية التي يختفي معها كل زمان ومكان وألوان وأسئلة؛ والنبيّ فرحانٌ لا يفكر سوى في اللحظة التي تنتهي فيها تلك الطريق، لحظة "اللقاء".

علِم حاكم الجنوب بمقتل أخيه على يد القاضي "الأعرج"، فحرك إلى الحاكم الأكبر الشَمالي في جيش مثقل بالبنادق والمدافع، عبر مدخل بلدة "أمْسْكُرودْ"؛ وفي نيتِه أن يخْضَعَ حاكمُ الشمال لسلطته، وأمّا دافع "الانتقام"، فلم يكن ـ بالنسبة له ـ سوى مطيّة.
كما علم الحاكم الأكبر للمنطقَة الشمالية بخطّة حاكم الجنوب؛ فاستنفر جيشه، وأمر صدره الأعظم قائلا:
ـ جئني ب"أسْكرّايْ"! وفي نيّتِه أن يستخدمه دِرعاً خارقاً ضدّ عدوّه.

عند بلوغه بلدة "مُباركة"؛ كان الجواد قد مات منذ أربع سنين، ولم يبق منه سوى هيكلُ عظميُ شامخ؛ فنزل من على صهوته، وقبّل عظامَه، ودفنها؛ ثم سار بضعة فراسخ، فرأى طفلة واقفة على صخرة دُلُوميتْ صامتة، عمرها اثنتا عشرة سنة، وجميلة مثل خنفساء.
ـ ما اسمُك أيتها الصغيرة؟
ـ اسمي "حورية". قالت.
ـ ماذا تفعلين على هذه الصخرة المهجورة؟
ـ أنتظر أبي.
ـ من هو أبوك؟
ـ أبي اسمه "أسْكرّايْ"...
اضطرب قلبُه، وحاول ضمَّها إلى صدره، لكنّها تراجعتْ خطوة، وقالت:
ـ من أنت؟ أنا لا أعرفك...
ـ أنا "أسْكرايْ"... والدُك؛ وأنتِ ابنتي، وأمّك "مُباركة"...
ـ أنا لا أثق بك؛ فلو كنتَ أبي ما هجرتنا أنا وأمّي.
فأجهشت بالبكاء، وجرت باتجاه بلدتها.
ـ سآتي الآن لزيارة والدتك. قال لها.
ـ إذا كنتَ تريدُ زيارتها، فاذهب إلى المقبرة... قالت من دون أن تلتفت إليه، وتابعتْ جريَها.
فتحجّر في مكانه مثل صنمٍ منحوت في الرخام البارد، وحاول ـ لعدّة ساعات ـ أن يفكر فيما جرى لمحبوبَته "مُباركة" وله؛ لكنه لم يقدِر؛ إذ كان ذهنُه متحجِّراً هو الآخر.
بحلول الظلام، "رأى" طائراً كبيراً يخفق بجناحين ليسا كمثل أجنحة الطيور، وعلى ظهره طائر صغير ناطق.
فحطَّ أمامَه ليقول له هذه الكلمات، وليعودَ إلى سمائه.
ـ قريباً سينحلُّ اللغزُ، وستنتهي القصّة.
وعندما سأله:

ـ من أنتَ أيُّها الطائر البشري؟ قال له وهو على وشك الاختفاء:
ـ أنتَ نبيّ أرضي، وأنا ملاك أرضي، وكان لي رسالتان: أن أخبر أهلَك بخطر القضاء عليك، وباقتراب قصّتك من النهاية.

بين المقبرة التي دُفنتْ فيها "مُباركة"، والحيِّز الذي هو فيه، فرسخٌ واحدٌ، ولكنّه استغرق قرابةَ شهر من السير في طريق أخرى لبلوغِها؛ طريقٍ جاز له أن يسمّيها "طريق الخوف من المُساءلة".
وهو جاثٍ على شاهدة قبر حبيبتِه، قال لها بعين مغرورقة:
ـ ماذا قتلكِ يا حبيبة البحر؟ فأجابَته:
ـ ما قتلني ليس الهجر كما تعتقد؛ وإنّما تلك الأزهار التي كانتْ تكسو سائر جسدي.
ـ كيف ذلك والأزهار رمزٌ للجمال والحياة؟
ـ لستُ أدري؛ كل ما أعرفُ أنني كنتُ طفلة مضطجعة على بساط عشب مُزهر، أرنو غنمي في شمس الغروب... فجأةً أحسستُ بجسمٍ غريب يثقل على صدري، فإذا بدمٍ يخرج منّي، وبأزهار البساط تقفز على جسمي، وتلتصق به، وتُمدِّدُ فيه عروقاً مختلفة الألوان حتى بلغتْ رأسي؛ آنذاك فقدتُ القدرة على الكلام.
ـ وماذا عن طفلتنا "حورية"؟
ـ أنا من سمّاها بِهذا الاسم، لأنها خرجتْ من تحابِّنا لبعضنا في الموج.
ـ هل تسامحيني على ما فعلتُ معك؟
ـ بل أنا من يطلب منك أن تسامحني...
ـ ولكن...
ـ اسمع أيّها الحبيب! الوجود الذي أنا فيه مبنيٌ كلّه على التسامح، ولقد سامحتُك وأمّي وأبي لحظة تحررتُ طيفاً نقيّاً من الرغبات...
ـ أرغبُ في أن أعرف؛ كيف استقبلك القبر؟
ـ كان أمراً جميلا؛ فما إن أهالواْ عليَّ التراب حتى أضاء المكان واتّسع؛ وجاءني ملاكٌ في صورة امرأة، وقالت لي:[أنا "سكينة" أرسلني رئيس الملائكة لأبشرك بالجنة.]
وناولتني كُتيِّباً بسبعة ألوان، وعليه هذا العنوان [دليل الأنبياء]؛ وعندما قلتُ لها:"أنا لا أعرف القراءة"؛ همستْ في أذني:"اقرئي!"؛ فشرعتُ أقرأ.
ـ ماذا قرأتِ بحق الرب؟
ـ ما أثارنيَ هو "باب تراجم الأنبياء..." بستة وثلاثين ألفاً، منهم عدد كبير من النبِيّات، وقرأتُ اسمك في حرف "الألف" فوجدتُك "أسْكرّايْ" بن "أزكايْ" الحفار و"إيطّو" النساجة.
ـ هل في ذلك الكتاب خبر عن ساعة موتي؟

ـ أجل... وفيه أنّ طفلتَنا "حورية" ليستْ من صلبك، ذلك لأن سائِلَك كان خالياً من أسباب الخلف ساعة الحبّ.
ـ ... وكيف تفسِّرين إنجابَك لها؟
ـ يقول "الكتابُ" [... لحظة اشتعال شمعة "أسْكرّايْ"؛ حضر ملاك "الضوء البنفسجيَ"، ونفخ في الطيِّبة "مُباركة" لأجل أن تلد ملاكاً في صورة أنثى اسمُه "حورية"...]
ودَّ لو يتحاور معها مئة سنة، ولكنّه نبيٌّ كما يقول الكتاب؛ وعليه أن يكتم بعض الأسئلة، وأن يلتزم بحياة الأرضيين إلى حين انفتاح السماء لروحه. فقال لها:
ـ سأتركُك تنعمين بالسكينة، وسأذهب توّاً إلى بيتكم لآخذ طفلتي "حورية" معي.
فقالت له:
ـ "حورية" ماتت، وهي التي اتخذتْ لك شكل الجواد الذي سافر بك عبر اثنتي عشرة سنة، وأنتَ من دفنها؛ وهي الآن حرّة سعيدة تلعب مع قريناتها من الملائكة الأطفال.
فتململت تربة القبر، وخرجت منه يدٌ بضّة في مثل بياض الشمع، وبين أناملها صفحة منتزعة من كتاب "دليل الأنبياء...". فأخذها ونظر إليها بعينيه السوداوين وقال لها:
ـ أنا... لا يمكن لي القراءة.
ولم يجئه أيّ ردّ.
بيد أنّه سمع صليل سلاسل تحاول إغلاق المقبرة التي لا أسوار ولا بوابة لها. فخرج منها في ضوء قمر.

الوقتُ فجرٌ، و"يامْنة" ما زالتْ مستيقظةً تنسجُ نسجاً عمره اثنتا عشرة سنة. كانت تنسج وتنسج في انتظار أن يعود زوجُها "أسْكرّايْ"؛ كانتْ تفعلُ ذلك ـ ليسَ تسويفاً لطلب سيدي "أيّوب" ليدها؛ ولكن، حرصاً على ألاّ تنتهي "القصّة"؛ قصّة "النبيّ".
فسمعتْ الكلب العجوز "أدّايْ"، يئنُّ أنيناً مختلفا؛ ثم سمعته يكشط باب البيت، وينبحُ نباحاً متقطِّعاً واهنا، ففتحت الباب لتراه يجرّها من تلابيب كسوتها إلى الخارج؛ ففرح قلبها وقالت له:
ـ هل هو سيِّدُك؟
فنبح نبحتين.
ثم تجلّى "أسْكرّايْ" من ضباب الفجر مثل طيف متعب.

[في غيابك الطويل، ولدتُ "مريم" وهي في شهرها الثالث، ولا تسلْ عن صورتِها لحظة خروجِها منّي أيّها النبيّ!... لقد كانتْ طفلتُك في صورة سمكة الجمبري، ولقدَ رأيتُها

تقفز إلى طشت ماء كان قريبا منّي، ومن ثمَّ، راحتْ تسبحُ فيه، فلم أندهش للأمر، بل أطعمتُها بفتات خبز الشعير، ورأيتُها تنهمُ منه، فكان عليَّ أن أحملها إلى المحيط الأطلسي لكيْ تنعم بحياة الأسماك، ولم يعلم بما حدث لي أحد؛ فاصطبر أيّها النبيّ!
وفي غيابك راجع الأهالي "قصّتك" وآمنواْ بأخلاقِها، واختفى الخوف والطمع من قلوب الناس، وعمّ العدلُ البلدة، وامتلأت الأنهار، وأثمرتِ الأراضي، وازدهرت الماشية، وكلّ ذلك بفضل الفقيه سيدي "أحمد بن محمد" الذي خرج ذات يوم ليقول لنا:"لقد حللتُ لغز اختطاف سيدي "ربّي بن عمران" الذي كان ـ باجتهادِه قبل الوقت ـ على وشك أن يُجهض قصّة "النبيّ"، لذا؛ أرسلت "السماءُ" ملاكينِ في شكل عفريتين ليختطفاه درءً لكارثة عظيمة كانت لتقضي علينا جميعا؛ وأمّا المعادلة الرقمية برسم النجمة الخماسية، والمحاطة برموز: الكواكب والشهاب؛ فمعناها كما يلي؛ النجمة هي النبيّ، والشمسُ؛ الحقيقة الساطعة الحاجبة لجوهر الحقيقة، والأرض؛ كناية عن الرغبات، والقمر؛ رمزٌ للتيه والضياع، وكوكب الزهرة؛ دليل التائهين والضائعين، والشهابُ؛ تصويرٌ للمعاناة... ولهذا جاءنا نبيٌّ أعمى ببصره، بصير بعماه، ولا قدرة للشمس الساطعة أن تمنعه من رؤية الحقيقة الجوهرية"] قالتْ "يامْنة".
ولكنّها لم تخبره بأن سيدي "أيّوبْ" تقدّم لخطبتها بعد أن اختفى "أسْكرّايْ".
["أسْكرّايْ" لن يعود، وأنا أحببتُك قبلا منه، وما زلتُ أحبّك، فتزوجيني، وسَوْف أسعدك!] كان يقول.
فبكى... لأنّ "القصّة" على وشك الانتهاء... لأنّ أغلى الناس لديه ماتواْ، أو لمْ يولدواْ أصلا؛ ولأنّ "الألوان" التي لم يبصرها في حياته، تجلّتْ له كنوع من "الشر"؛ وبسبب ذلك صرخ:
ـ سُحْقاً لكِ أيّتُها الألوان!
***
وهما في "السرد"، في ساعة الغروب؛ أتى الفقيه سيدي "أحمد بن محمد" رفقة سيدي "ربّي بن عمران".
وكان أن دخل الأول في لون الرماد المرقّط بالفحم والمعادن، والثاني في لون حجر الغرانيت المرقّط ببلورات البيروكسين السوداء؛ في ضوء شموع شبه أبيض.
فقال الأول:
ـ سررنا بعودتك يا "أسْكرّايْ"؛ كما سررنا بعودة أخينا سيدي "ربّي بن عمران".
فارتمى هذا الأخير محاولا تقبيل رجليْ النبيّ؛ ولكنّه استوقفه وقال:
ـ سبق أن قلتُ لا سجود ولا ركوع إلاّ للرب.
فردّ الفقيه بكثير من الاحترام:
ـ معك الحق أيّها النبيّ!

- أرجو أن تخبرنا في أيّ زمان ومكان كنتَ؟
فنهضت "يامْنة" لتقول:
- لا سردَ يستحق السماع في مثل هذا اللقاء، إلاّ بعد وجبة طعام شهية.
فقامت إلى المطبخ لتعدَّ أكلةً مُناسِبةً لِمقامٍ عظيم يجمعُ ما بين نبيٍّ وفقيهين، وامرأة قلبُها بسِعة "الغفران".
وهُم في مَستهلِّ الانتظار؛ قال الفقيه:
- أرى ألواننا اختفتْ؛ فهل هذه الظاهرة من ضوءِ شموعِكَ الشاحبة يا "أسْكرّايْ"، أمْ هي من صُنْعِ قدراتِك الخارقة؟
وقال الفقيه الآخر:
- بعد كلّ ما رأيتُ في العالم الذي كنتُ فيه، لا شيءَ عادَ يدفعُني إلى "الاستغراب"؛ كلّ ما في الكون صارَ "إعجازاً" بالنسبة لي.
حاول النبيّ أن يقرأ أفكار الفقيه المخطوف من قبل الملائكة، ولكنّه لم يقدر على فكِّ حبكة القصص المتقاطعة في رأسه؛ بيد أنّه أدركَ "السبب الجوهري" الذي على أساسِه نُسِجَ وجودُ سيدي "ربّي بن عمرَان": السؤال.
ذلك السؤال الذي سطّرهُ بيدٍ مرتعشة على ورقة من كتّان.
- أيّ إحساس جاءك يا سيديَ "ربّي بن عمران" عندما خططتَ بيدٍ مرتعِشة سؤال:"ما هو سرّه؟"
فرأى قلبَه يهوي من الرهبة، وتمتم:
- لم يكن إحساساً، بل رؤية: إذ تجلّى لي ملاكٌ مرعِبٌ ببياضٍ مُضيء، وقرون ستة، وأجنحته أربعة، وعيون ثمانية، وذيل ناري... فقال لي:"من أعطاكَ الحق لكيْ تسأل عن النبي؟"؛ فما إن حرّكتُ شفتايَّ لكي أقول له بأنّ "السؤال" من أدوات الفقيه الضرورية لتحقيق المعرفة والإيمان؛ حتى أمسكني بيدٍ بثلاثة أصابع وبراثين من نار، وطار بي...
فجاءت "يامْنة" بطبقٍ قوامُه سمك وقرعٌ ولفت؛ وقالت:
- سنستمع إلى بقية القصة فيما بعد...

قال الفقيه:
- جهنّم هي السؤال.
وقال النبيّ:
- الجنّةُ هي الرواية.
فتابع الفقيه قائلا:
- ... فطار بي إلى قمّة جبل "درن"؛ حيث بنايةٌ تحارضية كلّها رخامٌ أزرق صقيل، وبها مكتبةٌ بعرض وطول البحر؛ فقال لي:"إذا كنتَ تريد معرفة أسرار الأنبياء، فاقرأ!"

واختفى... ومنذ ذلك الحين وأنا أقرأ نهاراً وليلا، من دون أن يأتيني الشعور بالتعب أو النعاس، أو الإحساس بالعطش أو الجوع، أو أعرفَ الوقت؛ إلى أن عثرتُ ذات مرّة على كُتيّب من جلد الغزال عنونه كاتبُه ب"الوصيّة" وفيه ذكرٌ بأسماء جميع الأنبياء والمرسلين، والنبيّات والمرسلات؛ منذ أن تفرّقت البشرية على ظهر الأرض. وكان أن وجدتُ اسمَ "أسكرّايّ" كنبيٍّ فريدٍ، لتذكير "البشرية" بضرورة مجاهدة أهوائِها "الحيوانية" لأجل بلوغ "ذلك الإنسان الذي يريدُه الربُّ خليفةً لهُ في الأرض"...

آنذاك، تجلّى لي الملاكُ الذي اختطفني، وبجانبه شيخٌ ضريرٌ على كتفه صقر؛ وقال لي:"حان الوقتُ لكيْ تعودَ إلى أهلك!" فتقدّم ذلك الشيخ، وشدّني من يدي، وطار بي إلى البيت؛ (صمت)... هذه قصّتي مَعك أيّها النبيّ، فماذا كانتْ قصّتُك؟

بدل أن يجيبَه، قام النبيّ إلى محرابه القديم، وجثا، وأنشدَ هذه الصلاة:[أيّها الربُّ المتعالي، اجعلْ في قلوب عبيدِكَ الحبَّ، ورقّيهم إلى "الإنسانية" التي تريدُها لهم!]

9

بحضور الحاكم سيدي "عْلي" وأخيه سيدي "أموسى"، والفقيهين، و"يامْنة" قال النبيّ:

ـ سمعتُ دبيبَ جيشيْن؛ واحدٌ صاعدٌ من الجنوب إلى الشمال، وآخر، نازلٌ من الشمال لاعتراضه، وعدْوَ فارسٍ آتٍ إلينا...

فقال الحاكم متمسِّكاً بما هو أهمّ في نظره:

ـ رأيتُ أن ألوان سائر المخلوقات اختفتْ، فهل أنتَ من وراء هذه الكارثة الجديدة؟

ـ أجل. قال النبيّ.

ـ تقول "أجل" وأنت مرتاح، وكأنّ اختفاء الألوان ليسَ فيه مصيبة؛... أ لا تعلم بأنّ الألوان هي مصدر رزقنا وسعادتنا... كيف سنبيع زرابينا وهي باللونين الأسود والأبيض وما بينهما؟ وكيف لنا أن نصنف النفيس والبخس من الأسماك، والذهب؛

كيف تكون له قيمة إذا ما صار في لون الحجر؟... والدم نفسُه؛ كيف ستكون له قيمة في القتال إذا لم يكن أحمر؟
ولم يتحرّج الحاكم من قول:
ـ ... ونساؤنا؛ كيف نحبُّهن بشفاه داكنة؟ وخدود باهتة؟ والنار؛... النار التي نستدفئُ به في الليالي الباردة؛ كيف ستُدفْئنا وهي في لون الرماد؟ والخبز الذي نتلذذ بِلَوْكِهِ في أفواهنا؛ كيف يكون طعمُهُ لذيذاً وهو في لون الفحم؟ و...
قال النبيّ:
ـ خَبِرتُ أنّ الألوان تقتل (في إشارة إلى ما جرى لمحبوبته "مباركة")؛ ولقد غضبتُ عليها، فانقشعتْ؛ وإن شاء الربّ ستعودُ الألوانُ إلى أشيائها؛ أمّا الساعةُ، فهي ساعة حرب...
ـ أنا لا أهتمُّ لحربٍ بعيدة عنّا. قال سيدي "عْلي".
ـ ما من حربٍ بعيدةٌ عنك أيّها الحاكم. قال النبيّ.
فطُرِقَ باب البيت.
ـ ادخل أيها الفارس!
فدخل وهو في لون السُّخام.
فناوله النبيّ تفّاحةً سوداء، وقال:
ـ علمْتُ أنك جئتني بأمر سيدنا الحاكم الأكبر لمنطقة الشمال.
فقالَ الفارس:
ـ شحبتْ ألواني في اللحظة التي تخطّيتُ حدودَ بلدتكم؛ انظر يا"أسْكرّايْ"! أبدو مثل رجل الغبش... أرجوك؛ ردَّ لي ألواني!
ـ ستسترجعُ ألوانَك إن شاء الربّ قريباً، فماذا عن الرسالة؟
ـ يريدُك الحاكم الأكبر أن تنظمَّ إليه في "حَرْكَةْ" ضدّ حاكم المنطقة الجنوبية...
والتفتَ إلى سيدي "عْلي" قائلا:
ـ ... ويريدُ منك أن تجند له خمسمائة مقاتلا بين خيّالة ومُشاة.
فعَمَّ صمتٌ ثقيلٌ بارد؛ في أضواءِ شموع شاحبة؛ وخيالاتُ الشخوص السبعة تتراقصُ ببطء على جدران الغرفة.
كلٌّ راح يفكّر في ما يحدث وفيما سيحدث غداً، وبعد غد، وبعد أسابيع:
"أعتقد أن "أسْكرّاي" لا يكذب، هو بلا شك نبيّ، وكل ما سمعتُ عنه في مراكش حقّ... فماذا عليّ أن أفعل الآن؟ هل أعترف له بأنني صرتُ أومن به؟ إنّ ما جرى للألوان ليس سوى معجزة من معجزاته... بحق الربّ، ما أراده الحاكم الأكبر إلاّ لهذا السبب؛ أن ينتصر به على عدوّه..." كان يقول الفارس في نفسِه.

"سيضطرُّني أخي سيدي "عْلي" إلى الذهاب معه لنصرة حاكمنا الأكبر، وأنا لم أشارك في حرب قط؛ ولم أقتل أحداً في حياتي قط؛ أنا مجرّد صياد للسمك، وليس لي أدنى رغبة في "السلطان" كيفما كان؛ ولكنني لا أقدر على الرفض؛ وهل النبيُّ سيقدر؟" همسَ سيدي "أموسى" لنفسه.

"كيف سيتخلّص النبيّ من هَذه الورطة، وأنا أعرف أنه من نوع الأنبياء الذين لا يشاركون في حرب؟ وماذا لو رفض "طلب" الحاكم الأكبر؟ هل ستضطرّهُ الحالُ إلى طلب النجدة من الربّ؟ قد تحدث للحاكم وشعبِه كارثة لم يخبرها قط: أن يتجرّع مرارة الهزيمة... ولكن؟ ماذا عسايَ أن أفعل لمنع تلك الحرب وحقن الدماء؟ هل أطلبُ منه بأن يجنّدَ قواه لجعل الحاكمَين يتّفقان على الصلح؟" قالتْ "يامْنة" لنفسها.

"... إذا رفضتُ، سأعرّضُ شعبي للموت سواءً ربح الحاكم الأكبر الحرَبَ أم خسرها. ورطة... أنا بين مطرقة الشمال وسندان الجنوب... ليس لي سوى أن أجازف في اتجاه نصرة الشمال." قال سيدي "عْلي" لنفسه.

"سأقترح على سيدي "عْلي" أن نشتريَ عدم المشاركة في الحرب بالمال والسلاح والخيل؛ فلا خير في حربٍ تقضي على الرجال!" فكّر سيدي "ربّي بن عمران.

"... يقول الكتاب بوجوب نصرة أصحاب الحق؛ والحق مع سيدنا الحاكم الأكبر، لأنّه يعمل على محاربة العدوّ الأجنبي، وعلى توحيد البلاد، وتحقيقَ أسباب الرخاء بعد الفقر والقهر والمجاعة والطاعون..." أسرَّ سيدي "أحمد بن محمد" لنفسه.

والنبيّ قد سمع كلَّ ما فكّروا فيه، ورأى كيف تعتصر قلوبهم وتضطرب خَوفاً من المجهول.

ـ الحربُ ضرورية لأجل الاستقرار؛ وبعضُ القتل قد يحدُّ من القتل، وكلّ من قُتل في حرب فهو شهيد؛ عسى أن يكون على الأرض حاكمٌ واحدٌ عادل." قالت النفسُ للنبيّ.

ولكن السؤال الذي جعلها تضطرب، على الرغم من أنّ سيِّدَها خَبِرَ شتى أنواع "المعجزات"، هو:أيُّ دور للأنبياء في الحروب؟

هل يحمل السلاح ويشارك في نزع الأرواح علماً بأنّها "نفخُ" من الرب؟ هل ينحاز إلى "سلطان" ضدَّ "سلطان"؟ أم يقعد ليتفرّج على طاحونة الحرب وهي تهصر الكبير والصغير، والطيّب والشرير؟ أم يفرَّ إلى "العبادة" في مكان غائر في الصخر، ما بين البحر واليابسة؟ ...

فانطفأت الشموعُ إلاّ واحدة، وهم ما بين الليل والنهار؛ فنهض النبيّ ليقول لهم:

ـ سأخرجَ ثم سأعود.

فما سألوه:"لماذا؟"

ثم عاد بعد ساعة، وقال للفارس:

- هيّا إلى نصرة الحاكم الأكبر للمنطقة الشمالية!

بعد أن انصرف النبيّ والفارس؛ أتى "أسْكرّايْ" آخر ليقول لسيدي "عْلي":
- هيّا إلى تجنيد المقاتلين!
وأضاف في دهشة الحاكم:
- لا تسلْ عن ما جرى، ونفِّذْ!
فانصرفواْ خمسة.
ثم جاء "أسْكرّايانْ" اثنان، وقال أحدُهما للآخر:
- طرْ إلى حاكم المنطقة الجنوبية واجعلهُ يقتنع بحلٍّ يرضي الطرفين، ويجنّبَ الناسَ شرَّ القتال .
فرأتْ النبيَّ "النسخة" ينشر عليه عباءَته ويختفي.
وبقي النبيّ "الأصل".
- من أنتَ من هولاء. سألت "يامْنة".
- أنا "أسكرّايْ" الحقيقي؛ الرجل الذي عشقك إلى حدٍّ أنّني عشقتُ العشق ذاتَه، و...

كانتْ "يامْنة" تعرف بحدس النساء، أنّ زوجها "أسْكرّايْ" خانها ذات ليلة؛ فقالت لنفسها:"لو لم يخُنْ، لما جاز له أن يكون نبيّا".
فقالتْ له:
- نسيتُ أن أخبرك (كذبة بيضاء)؛ ففي الليلة التي قلتَ لي:"نسَيتُ شيئاً في بيتِنا الذي في الشاطئ، سأذهبُ غداً لجلبِه"؛ جاءني قطٌّ أحمر، وجُدْجُد أزرق، ورتيلاء وردية، وغراب أبيض،وسمكة قرقور لها رجْلان؛ فقالواْ لي:" لقد ابتلى الربُّ النبيَّ بعشقِ امرأة؛ لكيْ يعرف طعم العشق الحلو، ومرارة الخيانة؛ ليعذر..."
فأشفق عليها من الكذب الذي به أشفقت عليه، وقال لها:
- لقد نلتُ ما استحققتُ من عِقاب، وإنّي أطلبُ منك أن تسامحيني.
وبسبب عشقها له، سامحته، وقالت:
- ولكن؛ ماذا فَعلتَ حتى تضاعفتَ؟
فأجابها:
- أ تذكرين "الشق" الذي حدث في نسيج الزمان؟... لقد ذهبتُ إليه، ونقضتُ قطعة منه، ومررتُ عبرها لكي أتضاعف...

قال النبيُّ للفارس:
- لا داعيَ للإسراع، فلقد بلغتُ الحاكم لحظة خروجنا من البيت.

لم يفهم الفارس، بيد أنّه قال:
ـ ما زلتُ أراني من دون ألوان، فمتى ستردُّ لي ألواني؟
فسأله النبيّ:
ـ هل سبق لك أن قتلتَ بشرياً في حرب؟
فأجاب من دون تردُّد:
ـ أنا جنديٌّ؛ والجنديُّ طوعُ أوامر قائده.
وأضاف:
ـ وأنت؟ هل سبق أن قتلتَ رجلا في حياتك؟
سؤالٌ أحرجه، فهو لم يقتل ب"يديه" حيواناً أو بَشرا، ولكنّه رأى أناساً يخطفهم الموتُ بسببه؛ فندم على طرحه لسؤال "القتل"، وهو يعرف أن "القتل" من متلازمات الجنس البشري؛ وذلك منذ أن قتل أولُ بشري أوّلَ بشري.
وتذكّر ما تعلّمه (عن بعد) من دروس الفقيه سيدي "أحمد بن محمد"، كون جميع الديانات "تحرّم القتل"، وتبيحه في "بعض الظروف"...
ـ لا!...
ـ لا؛ ماذا؟ سأل الجندي.
ـ ... لا! لم أقتل "شيئاً" في حياتي عدا بعض الأسماك.
ضحك الجندي، وقال:
ـ يا لك من نبيٍّ عجيب! ...
ـ لماذا تقول هذا القول؟
ـ أرى أنّك تستكثر "علينا" قتل البشر والحيوان، وتستقلل عليك قتل الأسماك؛ أ ليس في الأسماك شيءٌ من روح الرب؟
سؤال آخر محرج.
ـ ... أجل! ولكن...
ـ ولكن لا بدَّ للبشر من اللحوم، ومن الدفاع عن النفس، وعن العِرض والأرض، ومن خوض القتال من أجل صون المقدّسات، ونشر الأمن، ومعاقبة المجرمين، والهبوب إلى نصرة المظلومين من الأمم...
"هذا الجندي الفارس عالمٌ بأمره، ولا يحقّ أن يبقى في الشحوب" قال النبي في نفسِه.
وقال له:
ـ أوقف جوادَك، لأجل أن تعرف الألوانُ كيف تصبغُك من جديد.
فغطّاه ب"سلهامه" مقدار دقيقة ونصف، ولمّا نزعهُ عنه، رأى الأوان، وقد عاودته، لكن في صورة أكثر بَهاءً وجمالا.

فترجّل الفارس، وراح يقبّل يديْ النبيّ، وقال:
ـ ... والآن؛ ماذا علينا أن نفعل أيّها النبيّ؟
ـ سبق أن قلتُ لك أنني بلغتُ الحاكم الأكبر لحظة خروجنا من البيت، وأنا الآن معه في مدخل جبال الأطلس الكبير من الناحية الغربية؛ وإنّه تعرّفني، وأدخلني خيمتَه، وقال لي:" أريدك أن تعصف بعدوّي حاكم المنطقة الجنوبية، أو تأتيني بأخباره السريّة."
ـ رجاءً لا تستعجل القتال! ... لديّ خطة سترضيك وسترضيه.
فقال الحاكم الأكبر:
ـ أثق بك؛ فمنذ اتبعتُ الحميةَ التي وصفتَ لي؛ صرتُ في صحّة جيّدة؛ قل! ما هي خطّتك؟
ـ خطّتي هي أن تعطيه حكم منطقته، وحكم المدينة والبرج الذي يتحصّن به البرتغاليون، وهكذا سيتحوّل لك مَن عدوّ إلى صديق.
ـ هبْ أنني قبلتُ خطّتَك، لكن؛ كيف العمل؟
فقال النبي:
ـ رأيتُ ـ وأنا في طريقي إليك ـ أن مَلِكَ البرتغال في ضِيق، وأنّه سيرسلُ ثلاث بواخر حربية بعدد كبير من الجنود إلى مدينة الجنوب، ليدعم حاكمَها البرتغالي، فيبقى لنهب خيرات البلد؛... الخطة هي أن تتعاون مع حاكم المنطقة الجنوبية لإفشال محاولة المدد، وطرد الأجانب...
ـ لقد فهمت "الخطّة" ـ قال الحاكم الأكبر ـ ولكن هل حاكم المنطقة الجنوبية قادر على فهمها؟... وماذا عن مقتل أخيه وقد كان في ديارنا؟
ـ أوقفْ جندَك أيها الحاكم الأكبر، وسأتولّى الأمر...
***
... وقال له حاكم الجنوب:
ـ من أنتَ؟
فأجابه:
ـ أنا "أسْكرّايْ" رسول حاكم الشمال.
ـ لقد سبق أن سمعتُ بهذا الاسم؛ أ لستَ ذلك الرجل ذو الخوارق الذي يدّعي النبوّة؟
ـ سيدي الحاكم؛ لننسَ هذا الأمر، ولننظر في "الخطّة" الآتية...
فقال له:
ـ جميعُنا من هذه الأرض؛ ولا عدوّ لنا إلاّ من الخارج، ولا منفعة لنا من الاقتتال؛ ولكن؛ ماذا عن مقتل أخي وهو رهينة لدى حاكم الشمال؟
ـ أخوك لم يُقتل، وأنا كفيلٌ بإحضاره لك بعد حين.
فقال حاكم الجنوب:

ـ إذا كان الأمر كما تقول، فأنّا مع "الخطّة"، وإنّي أعْلنُ ولائي لحاكم الشمال، لعلمي بأنّه حاكم متواضع؛ يحبّ الحقّ، ويحارب الجهل والفقر والشطط في استعمال السلطة، ويدعو إلى رخاء البلد.

بذلك، سيصير للبلاد حاكمٌ واحدٌ، وسيختفي الجهل، وسيغيب الفقر، وستحلُّ العدالة، وستعُمُّ الرفاهية...

لحظتئذ، شرع النبيّ الحقيقي يرتق "الشقّ" الذي تضاعف منه؛ لأجل أن تختفي نُسخُه، فيبقى نبيّاً واحدا... إلى حلول أجله.

في صباحٍ غائم، رأى السماء مثقلةً بأصباغ قوس قزح، وسرعان ما شرعت تمطر ألوانا...
رآها بعينين صارت فيهما حواشيَ في صُفرة ثمار الأرْكان، وبؤبؤ أسود مثل ما عند سائر البشر.
والتربة والحجارة والنبات والحيواناتُ والأثوابُ وسائر الموجوداتُ، رآها تسترجع ألوانها.
عادت الألوانُ إلى أشيائها؛ فجاز للنبيّ أن يتخيّل حبيبته "مُباركة" مثل باقة أزهار شجرية، غرستْها يدٌ غيبية، في رمل المحيط الأطلسي؛ لأجل أن يسكر بالعشق، في فيء ألوانها.
وهو في غرفته يرنو ـ من خلال النافذة ـ إلى السماء الممطرة ألواناً ، أحسَّ بجريان سائل دافئ مدغدغ يجري في عروقه، فقال لزوجته "يامْنة":
ـ أشعرُ أنني على وشك التحوّل.
فوضع عنه عمامتَه، وتجرّد من سلهامه، ومدّدَ أطرافه؛ فرأت الزغب الشوكي الذي يكسو جسمَه؛ يتساقط؛ وبشرتَه القمحيَة؛ تكَتسبُ نعومة الشمع الخالص ولونَه؛ وأذنيه الخفاشيتين تصيران مثل أذنيْ البشر، ونَتأيْه العظميين اللذين في رأسه، يتراجعان.
فقالت له مبهورة:
ـ لقد صرت ـ بحق الربّ ـ في جمال وبهاء سيدِنا المسيح كما رأيتُه في أيْقونة.
فقال لها وهو يتألّم:
ـ أشعر وكأنّ شيئاً يريدُ أن يخرج من ظهري.
فتحسسته، وارتعبتْ، وقالتْ:
ـ ... إنّه شيءٌ مثل حدبة... بل حدبتان.
فقال لها:

ـ عمري الآن أربعون سنة حافلة بالتحولات، والخوارق، والمعجزات... لقد تعبتُ... أريدُ أن أرتاح.
فأزال عنه ثيابَه، وتمدّد على بطنِه، على زربية من صوف بشتى الألوان؛ واضعاً خدّه الأيمن على وسادة صغيرة.
فرأت ذلك الشيء العجيب يخرج من ظهره ...

10

رأتْ شقّيْن يظهران تحت كَتفَيْ النبيّ، وسائلاً أبيض لزجا يتسرّبُ منهما، وهي مذعورة.وسرعان ما رأتْ جنَاحيْن يتولّدان منهما؛ والنبيّ منبطحٌ يتألّم. حتى إذا ما انتصف خروج الجناحين؛ قالت له:
.... إنك تتحوّل إلى طائر.
فقال لها:
ـ ... بل إلى ملاك.
فسارعت تُمشّطُ بأظافرها، الجناحين الذين ما زالا لزجين.
ثم قامت إلى الموقد لجلب ماء ساخن، وشرعت تنظفُ "أسْكرّايْ"؛ ثم لفّته في مئزر كان قريبا منها، وعانقته بحنان؛ وقالتْ له:
ـ والآن، صرتُ أخافُ على حياتِك أكثر من ذي قبل.
فردَّ عليهاَ بنبرة هادئة:
ـ لا تخافي عليَّ بعد الآن، فأنا منذورٌ للطيران لأجل أن ألحق بسرب الملائكة التي تزورنا مرّة في السنة.
فأجهشت للبكاء:
ـ هذا يعني أنّك ستفارقنا.
ـ ليس قبل أن أنهي مهمّتي الأخيرة.
ولما سألته "ما هيَ؟"؛ قال:
ـ كنتُ قد واعدتُ حاكم الجنوب بأن أستعيد له أخاه المقتول؛ ولا بدَّ لي من أن أفيَ بوعدي.
فبكت للمرّة الثانية، وضمته إلى صدرها؛ فرآهُ متّقِداً برغبة غريبة.
وهي تحاولُ إخضاعَه للحبّ الأخير؛ قال:
ـ أما قلتُ لك أنّني صرتُ ملاكاً، وأنتِ تعرفين أنّ الملائكة لا جنس لها.
قالها وهو يتحسس أسفل بطنه.
فبكتْ للمرّة الثالثة.

- والآن، أريدُ أن أنام... وأحلمَ بأرضٍ مثل الجنّة لجميع البشر... أرض تستحق أن تُسمّى ب"أرض الإنسان".
فلم تجد ما تقوله سوى:
- أراك مُنهكَ القوى... ما رأيُك في حساءٍ دافئ من القرع والقدّيد.
فقال لها بصوت واهن:
- أراك لم تفهمي بعد... الملائكة لا تأكل، ولا تشرب، ولا...
فبكت للمرّة الرابعة.
فكيف لا يُشفق الملاكُ على من كانتْ دوماً تشفق عليه؟

نهض "أسْكرّايْ" الملاك، ومدّد جناحيه الناصِعَيْ البياض، ثم نفضهما حتى جفّا من اللزَج، فضمَّ إليه السيِّدة "يامْنة"، وغطّاها بريشه، وطبع على جبينها، "قبلة الوداع".
ثم أبعدها عنه برفق؛ فرأته يصير شفافاً شيئا فشيئاً، إلى أن اختفى عن عينيها كلّيا.
فسمعتْ حضورَه الخفيّ يقول:
- الوداع!
ثم سمعت خَفْقَ جناحين، وشعرتْ ببردٍ لذيذ، وبنثارِ ماءٍ دافئ على وجهِها. فقرفصتْ، ووضعتْ رأسَها بين ركبتيها لأجل أن تبكي للمرّة الأخيرة...
ودّتْ لو تصيرُ طائرا فتطيرُ معه؛ ليس إلى منتهى السماء؛ بل إلى سقفها... إلى حدود السحاب على الأقل... فكّرتْ:"ألا ما أبعدَ العِشق! ... وما أصعبَ عليَّ أن أصيرَ من الملائكة!"
ورفعتْ رأسَها قليلا لترى من النافذة، انكسار أشعة شمس الغروب، على مخلوقٍ شفّاف، صار يُشبِهُ في تباعُدِه وصِغر حجمِه؛ أرقةً فضّية؛ فقالت لظلّها الباهت:
- هل الملائكة تبكي؟
ثمّ مسحتْ بعيْنيْها الباكيتين مساحة بيتِها الصغير، فرأتّه شاسِعاً من فرط الخواء الذي عمّه.
فجاء "اللوم".
- أ ما كان بمقدورك أن تعيشَ؟ كنتُ لأقبلَ بك حشرة، بشراً، إنساناً، نبيّا يخطئُ بعض المرّة؛ ولكنّني لا أقبلُ بك مَلاكاً مُهاجراً وجوهراً معصوماً من الخطأ.
***
طُرقَ البابُ عند مغيب الشمس.
فدخل الحاكم سيدي "عْلي" رفقة "تيتْريتْ" الجميلة؛ فوجدَ أختَه "يامْنة" على ذلك الحال من الوُجْد؛ فأشعل شمعة، وقال:
- ما بك يا أختي في هذا الظلام؟

فأجابته بعفوية وحزن عميق:
- طار "أسْكرّايْ" إلى غير رجعة.
- لا تحزني يا أختي الصغيرة؛ فلقد عرفتُ نبيَّنا عاشقاً لك حدَّ الموت، فما من امرأة أخرى في حياته؛ وقريباً سيعود لك...
فردّتْ بحزن أعمَق:
- أنتَ لا تعرف ما جرى له، والأفضل أن لا تعرف، فلو عرفتَ؛ أخافُ عليك من الصدمة.
فتقدّمتْ "تيتْريتْ" وضمتْها، وقالتْ متذمِّرةً:
- آه يا ربّ... لماذا جعلتَ العشقَ يعذبنا؟
صفّق الحاكمُ يديْه، فدخل جَنديان كانا ينتظران في الخارج:
- احملا متاع أختي، وأركباها جوادا!
- منذ الليلة ستعيشين في بيت أخيك...
ولكنّها انتفضتْ منهم، وقالت:
- أ لا لا عيش حتّى الموت، سوى في هذا البيت!
من أراضي مراكش المتناثرة؛ جمّع الملاكُ "أسْكرّايْ" عظامَ وأسنان أخ حاكم الجنوب، وطار بها إلى قمّة "توبقال"؛ أعلى جبال الأطلس الكبير.
وشرع يصففها قطعة قطعة حتى اكتمل هيكلُه.
ونظر من حوله، فما رأى سوى سماء أزلية زرقاء مُضاءة صافية؛ ونظر إلى الأسفل؛ فرأى سُحُباً سوداء مثقلةً بالثلج؛ ثم نظر إلى ما تحت قدميْه؛ تربة حمراء قديمة عذراء لم تطأها قدمُ بشرية من قبل.
فأخذ منها كميّةً تليق لصنع "الجسد المفقود"؛ وشرع يُلبِّسُ العظامَ بالتراب إلى أن اكتمل ذلك "الجسد".
آنذاك، خاطب السماء التي بدتْ له أكثر قربا من ذي قبل:
- بحقِّ ربِّك لا تخذليني!
فسمع صوتاً كمثل لحنٍ عذب ورهيب يقول:
- ليس الخذلانُ من صفاتنا أيّها الملاك.
فخرج منها هُدْهُدٌ ضَخمٌ، برِجلين بشريتيْن صغيرتين، ومنقار نسر أصفر، وجناحي طائر البُطْرُسْ؛ وبإزائه طائر الشرشور الصغير البنّي المسالم.
فقالتْ السماء:
- ... أمّا الهدهد، فهو الجانب الشرير من روح البشر؛ وأمّا الشرشور، فهو جانبه الخيِّر.

وما إن وقع الطائران على الهيكل، حتّى صارا وإيّاه كتلة طينية واحدة؛ فرآها الملاك "أسْكرّايْ" تتشكّلُ من جديد؛ لحما متشابها وجلداً، فأعضاءً سمكية، ثم أعضاء بشرية، فعظاما وأظافر؛ إلى أن اكتمل أخُ حاكم الجنوب في الصورة التي قُتِل عليها.
وكأنّه يستفيقُ من سباتٍ طويل؛ تمطّط، وفركَ عينيه، وقال:
- أينَ أنا؟... ومن أنت؟... أشعر بالبرد الشديد.
فكساه الملاك من بعض ريشه حتى عمّه الدّفءُ؛ وأخبره بما جرى في جُملٍ قصيرة، فكاد يتملكُّه الرعب، لولا أن الملاكُ ضمّه إلى صدره.
عندما تبدّد رعبُه؛ قال أخ حاكم الجنوب:
- من أكون حتى يجري لي ما جرى؟
فأجابه الملاك:
- أنتَ آخر أعمالي على الأرض.
ثم طار به في طرفة عين، إلى الجنوب، إلى أخيه الحاكم...
***
هل يخبر أخاه بأنّ "الأعرج" قاضي الشمال، صديق البرتغاليين، اتّهمه وقتله ظلماً، لأجل أن تنشب الحربُ بينه وحاكم الشمال فيضعفان معاً؟
لقد أخبره الملاكُ بكلّ ما جرى؛ فاقتنع بوجوب "الصمت" لكيْ يستمرّ السلام في البلاد.
ولمّا سألهُ أخوه:
- كيف تكون حيّاً وقد جاءتني الأخبارُ تقول بأنّك قُتِلتَ، وقُطِّعتْ أطرافُك؟
فأجابه بهدوء:
- إنّهم لم يقتلوني، وإنّما قتلواْ رجلا يشبهني كان معي في السجن؛ ولمّا قُتل "الأعرج"؛ جاء رجلٌ وهرّبني منه.
- قصّة عجيبة... - قال حاكم الجنوب - والآن وقدْ ظهر الحقّ، دَعونا نحتفل!
في ساحة القصر وفي جواره؛ انبثقت فرقةٌ ضاربةٌ على الطبول، وقارعةٌ بالخناجر والسيوف، وأخرى، صادحةٌ بالأهازيج المحليّة، وثالثة جاريةٌ على الخيول، وقافزةٌ منها وإليها، ورابعةٌ، يشكّلُ أفرادُها أهراماتٍ بشرية؛ وخامسة عجيبةٌ،مكسُوّة بوبر الماعز وتأكلُ الصبار بشوكه، كما ظهر للناس، "أشباردو" المضحِك، وفرقةُ "كْناوة" السودُ جميعُ أفرادها...
ابتسم الحاكمُ الأكبر، وقال لأخيه:
- ما رأيُك في ما ترى يا أخي العزيز؟
فقال الأخ:
- بسبب ما رأيتُ ؛... أرى أن تسمحَ لي بالاعتزال في أحد جبال "درن"... أريدُ أن أحيى في عبادة الربّ إلى أن أموت من جديد.

ـ منذ صغركَ وأنتَ ـ في نظري ـ رجلٌ كبير... لقد رأيتُ كيفَ تعاليتَ عن شؤون السلطانَ... ولقد بكيتُ عندما علمتُ بمقتلِك... لك ما تريد.

في مَصبِّ واد "سُوسْ"، حطَّ الملاكُ "أسْكرايْ" على شجرة أَرْگانْ اتخذتْ شكل عَلَمٍ، متأثرةً برذاذ المياه المالحة؛ وراحَ ينظرُ إلى عظمة المحيط الأطلسي.
رآهُ مثل سماءٍ أرضية متموِّجة مليئة بالخبايا والأسرار؛ وتراءتْ له ـ أبعد من الأفق ـ سُفُنٌ قادمةٌ منَ الجهة الشمالية في اتّجاه القلعة.
لن يفعل أيّ شيء لإيقافها؛ فمهمّتُه قد انتهتْ، ولا بُدّ له من الرحيل.
جهة الجنوب، رأى صيادَ سمكٍ عجيبٌ صيدُه: يخرجُ السمكَ من الماء بواسطة شبكة يدوية، ويوزِّعُه على ثلاثة أكوامٍ.
أغرتْهُ المعرفة، فطار جهة الصيّاد، وتوارى خلف شجرة كافور، وقال له:
ـ بحق الربّ؛ قل لي لماذا تعزلُ ذاك السمك وكلّه من الماء؟
نظر الصيّادُ حولَه مفزوعاً، وقال:
ـ من أنتَ؟ اظهر لكيْ أراك! هل أنتَ من الإنس أو من الجنّ؟...
فردّ الملاك:
ـ رجاءً لا تخف وأخبرني!
فنفخ في اتجاه الصيّاد ليشعِره بالأمان.
قال الصيّاد:
ـ الكَوْمُ الأيمنُ سمكُ البحر، والأيسر؛ سمكُ النهر، وما بينهما؛ سمكُ البرزخ؛ الأول مالح، والثاني حلو، والثالث أجاج... لكلٍّ طعمُه وآكلُهُ وثمنُه.
فما شعرَ الملاكُ إلاّ واللُعاب يجري في فمِه؛ إذ تذكّرَ أيّامَ الحياة على الشاطئ، "يامْنة"، سيدي "أموسى"، "مباركة"، "باسّو"...
فقال الصيّاد:
ـ صرتَ تعرف؛ فاظهر! عليك الأمان.
"كيف للكائن اللامرئي أن يتمظهر؟" قال الملاكُ في نفسه.
حارَ. فكّر. رأى من حقّ الصيّاد أن يعرفَ هو الآخر. معرفَة مقابل معرفة؛ هذا من العدل الذي طالما ردّده في تعاليمه أيّامَ كان نبيّا.
ـ طيِّبْ! سأظهر لك، ولكن عليك أن تعرف بأنّني لستُ لا من الجنّ ولا من الإنس؛ أنا ملاك شفّاف، ولكي تراني يجب أن تستخرجَ الوحل من الماء وتطليني به... لا تخف! فأنا سأرحل بعد قليل.
ـ هل لي أن أعرف ما اسمُك أيّها الملاك؟
ـ اسمي "أسْكرّايْ".

- أضنُّ أنني سمعتُ هذا الاسم من قبل... أ لستَ ذلك الرجل الذي ادّعى النبوّة؟
- كنتُ ذلك النبيّ، ولكنّني تحوّلتُ إلى ملاك؛ وأنتَ، ما اسمُك أيّها البشريُّ الطيِّب؟
- اسمي "سُليمان"؛ أشهرُ صيّاد غير معروف في البلاد.

لأجل أن يعرف، تشجّع الصيّادُ، وراح يطلي الكائن اللامرئي بوحل أزرق؛ حتى اكتمل له مظهرُه في السجيل.
وقال له:
- كثير من الصيادين يحلمُون باستخراج جوهرة ثمينة من البحر تغنيهم عن الفقر، وكثير من الناس يحلُمُون بلقاء الحاكم الأكبر لكي يطلبواْ أرضاً أو مالاً أو بيتاً، وأنا سأطلبُ منكَ طلباً أعتبرُه خطيرا...
- اطلب ما تشاء.
- هل تسمح لي بأن أروي قصَّتَنا؟
- افعل! ولكن، عليك أن تغسِلَ الوحلَ عن جسدي، فهنالك سربٌ من الملائكة على شكل طيور النُّحام الوردي تنتظرني ، وهي على وشك الإقلاع.
وأضاف:
- بعد الغسل، يجب الرحيل.
وكان أن شرعت الملائكة - التي على هيئة طيور- تصفق أجنحتَها استعداداً للطيران، فجرى الملاكُ على السجيل وهو يخفق جناحيه، وطار وراء السرب.

في البلدة، جمّعَ الصيّادُ أعزّ ما لديه من أصدقاء وأهل، منهم الرجال والنساء، والشيوخ والشباب، وبعض الأطفال المتيقظين؛ وقال لهم:
- سأروي لكم روايةً عجيبة لا يصدّقها العقل.
فقالوا له:
- نحنُ في حاجةٍ إلى الروايات العجيبة، أمّا الروايات التي تتكلّم عن حروب الحاكمين، وعن أوضاع الفقراء وصراعاتهم، وتلك التي تمجّدُ البطولات الفردية، أو تلك التي يحكيها أناسٌ لا قيمة تُذكر لحياتهم عن حياتهم، وتلك التي تتحدّث عن جمال فصل الربيع، وقسوة فصل الشتاء، وروعة شموس الشروق والأصيل والغروب... كلّ هذه الروايات، مللْناها، ولم يعدْ في مقدورنا أن نستمع لها.
اطمأنّ قلبُ الصيّاد، وارتاح لاختياره هولاء الناس الذين من بلدته، وقال في نفسِه:"
على الرغم من عددهم القليل، هم أحسن من سيستمتع بروايتي"
فقال الصيّاد:

ـ تعرّفتُ على ملاكٍ شفّافٍ مثل البلّور، اسمُه "أسْكرّايْ"، وله جسمٌ شفّاف مثل الزجاج، وليس له جنس، وحكى لي عن قصّته العجيبة، وعن ارتقائه من حشرة، إلى وحش، إلى بشر، إلى، نبيّ، ثُمّ إلى ملاك، ونظر في سمكي، ثم استأذنني وطار مثل انكسار ضوءٍ وراء سرب من طيور النخام الوردي، إلى أعالي السماء؛ وما سار السرب ناحية الشمال، ولا ناحية أية جهة؛ بل طار وطار عاليا، إلى أن اختفى في قلب السماء.

فتناظر الأهلُ وقالوا:

ـ ... لقد حكيتَ لنا قصّة لا يصدّقها العقل بالفعل، ولأنّنا نعرفُك صيادا مجتهدا، وأميناً صادقاً، ورجلا زاهدا؛ فإنّنا نصدّقك.

(انتهت)